www.alkottob.com

فـي مهـب الـريح

- روايـــــة -

www.alkottob.com

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail unecriv@net.sy
:
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.com

www.alkottob.com

❑❑

www.alkottob.com

تيســـير دبابنـــه

فـي مهـب الـريح

- روايـــة -

www.alkottob.com

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

خرج من قاعة الدرس واتجه إلى الحديقة حيث اعتاد أن يجلس على أحد المقاعد الخشبية المنصوبة على العشب الأخضر تظللها أشجار السرو والصنوبر، ويسري في نفسه شعور خفي حفل بالراحة والسرور يعوضه عن البحوث الجافة في الفلسفة، أو الاجتماع التي يلقيها المحاضرون بوتيرة متماثلة ومتشابهة، وكأنهم يؤدون طقوسا دينية لا تتغير ولا تتبدل.. كثيرا ما ساءل نفسه بخصوص اختياره هذا القسم من كلية الآداب، وإصراره عليه على الرغم من معارضة عمه الشديدة الذي طالما شجعه، ودفعه إلى دراسة الطب أو الهندسة في أية جامعة يختار، وإن كان زيّن له محاسن الجامعات البريطانية أو الأمريكية .

عمه مازال غاضباً منه رغم مرور عدة شهور على مغادرته عمان إلى دمشق، والتحاقه بجامعتها، ولم يجد مبرراً لذلك إلا التأثير المباشر والانطباع العميق الذي غرسه في ذاكرته أستاذه في مادة الفلسفة في الثانوي.. وأثناء توارد هذه الأفكار في مخيلته هبت ريح خريفية خفيفة، حملت معها الأوراق المتساقطة وتلاعبت بها بين شجيرات الورد الشامي، الذي يضفي مشهداً رائعاً للمكان...هل كان قراره صائباً في الاختيار أم أن هناك أموراً لها تأثير حاسم في مسار حياة الإنسان لا يملك إزاءها شيئاً..؟ صديقه نزيه سجل في كلية الهندسة، أما نسيم فقد التحق في كلية الطب.. لماذا تشبث برأيه الذي لا يعول عليه كثيراً في حياته العملية ..

لقد كان له حرية الاختيار ولكنه لم يسمح حتى بمناقشة الموضوع أو إعطاء أية فرصة لتغيير رأيه... وتبخرت آمال وطموحات عمه أمام ذاك العناد وتلك القناعات التي أصبح أسيرها.

أكثر ما أثار استغرابه وجود ثلاثة راهبات معه في قاعة المحاضرات، يأتين معاً في توقيت دقيق ويذهبن معاً..حتى مقعدهن الدراسي أصبح معروفاً في الصف الأمامي والكل يحترم عدم الجلوس عليه طالبات يشاركن بفعالية ملفتة

www.alkottob.com

عندما يفتح الأستاذ المحاضر باب النقاش حول موضوع ما .

لم يكن ثمة تزمت في مداخلاتهن، وقبولهن للرأي الآخر برحابة صدر عكس نفسه بالمودة التي أبداها جميع طلاب الصف نحوهن، أما ما لم يفهمه هو اختيارهن لدراسة هذه المادة الصعبة والتي يجدها متعبة حسب رأيه...

جالت في داخله مشاعر هزته عميقاً . إنه الآن وقد وضع كل الاحتمالات يعود بالذاكرة إلى الماضي، ذاك الماضي أقنع الآخرين أنه يملك إصراراً على دعم رأيه ويتشبث به، ويجعله يرفض أن يكون مهزوماً.

وبينما كان يحسب الحسابات ويضع لكل خطوة احتمالاً تذكر ذاك الماضي.

لا يستطيع أن يفكر، أن اهتمامه كان كثيراً ما يتوجه نحو تلك الفتاة المثيرة لمى والتي كانت تأتي كل يوم بلباس مختلف، يكشف من مفاتنها أكثر مما يستر ولا تأبه بأحد، وإذا ما ألقت التحية يوماً على زميل لها، نسج حولها قصة خيالية لا يمل تكرارها..

ماذا يهمه من مقولة ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود) الذي أمضى الدكتور اليافي ساعة كاملة وهو يوضح تلك المقولة . في الحقيقة لم يترسب في ذهنه شيء ذو أهمية، وهو شارد بعيداً يفكر باصطحاب لمى إلى الكفتيريا، ويفكر بالطريقة التي يبدأ بها الحديث ...لماذا لا يمتلك الجرأة على الاقتراب منها. إن طلب دفتر محاضراتها ستعرف حتماً أنها حجة للحديث معها..قد تتجاهله، أو تشيح بوجهها عنه، وفي هذا لطمة قوية لا يستطع تحملها.. لا، لا إن شاباً وسيماً مثله لا تخذله فتاة لمجرد إعجابه بها ومحاولته التعرف عليها.. ولكن ماذا سيقول أصدقاؤه إذا حدث العكس..وكسفته أو تجاهلته..حتماً لا يستطيع أن يتحمل ذلك.

أبداً مشاعره لم تكن بالود نفسه وهو يستعيد أيام دراسته الابتدائية في مدرسة الراهبات الناصرية، وكيف رفض أن يتزحزح من مقعده في الصف الأول، عندما طلبت منه معلمته ذلك، لتجلس مكانه زميلاً له بلا سبب باستثناء أن والده يعمل في مركز حكومي مرموق. وكيف لاحظ رغم صغر سنه آنذاك أن أبناء وبنات الأغنياء يحتلون الصفوف الأولى، وأبناء الفقراء في الصفوف الخلفية، ورغم عناده الذي اندهشت له معلمة الصف فإن الألم الذي اعتصر أذنه من ضغط أصابعها دفعه إلى النهوض والامتثال لأوامرها في الجلوس في مقعد آخر. صحيح أن والده لم يكن من أثرياء المدينة أو ممن يغدقون في تبرعاتهم الخيرية، و لكنه كان رجلاً مهنياً محترماً في أوساط العائلة، وبين معارفه وأصدقائه، إلا أن عمه في

www.alkottob.com

المقابل كان من كبار التجار المعروفين يمتلك عقارات وأراض شاسعة يجهل مكان بعضها..وكان يحرص على كسب ود رجال الدين والمساهمة في مشاريعهم الخيرية، إلا أن ذلك كله لم يشفع له أمام معلمته التي لم يعرف حتى اللحظة سبباً لسلوكها ذاك وتمييزها الذي لم يمح من ذاكرته رغم مرور السنوات الطويلة.. تلك الصورة لازمته وهو يحسب ما عسى أن يكون تصرف لمى معه، وهو المعتد بنفسه بين أقرانه..هذا أسلوب سخيف لا يقبل به .

ونهض متأبطاً كتبه وتوجه إلى كافتيريا الجامعة حيث تنتظره شلة من رفاقه الذين بادروه الاحتجاج على تأخره عن موعده معهم..كان النقاش صاخباً حول مؤتمر اتحاد الطلبة وتقييم الأسماء التي طرحت نفسها، لانتخابات الهيئة الإدارية لفرع الاتحاد، وممثلي المؤتمر العام، الذي تقرر عقده في الصيف القادم. القوى السياسية النشطة في القطاع الطلابي تسعى لكسب العناصر المستقلة، وعلى الرغم من أن البعثيين يمثلون المفتاح الرئيسي لإنجاح أية قائمة طلابيه، إلا أن التعليمات الحزبية المشددة في التحرك والنشاط، ومتابعة التطورات والمتغيرات، واتجاهات التيارات الأخرى مهمة ضرورية لدرء أية مفاجأة أو خطأ في الحسابات قد تقود إلى هزيمة لا يمكن قبولها وسيحاسب المسؤولون عنها.

كان يعرف في قرارة نفسه أنه وجه طلابي محبوب، خاض التجربة خلال السنوات الأربع الماضية، ولم يفشل في أي منها بل على العكس من ذلك كان يحصل على أعلى الأصوات حتى تكاد أن تكون تامة. حتى خصومه السياسيون لم يسمح لخلافاتهم معه أن تؤثر على علاقاته الشخصية بهم فخلال رئاسته لاتحاد الطلبة في السنتين الأخيرتين لم يبخل بمساعدة أي زميل له، وجعل من مقر الاتحاد منتدى يمارس فيه الطلبة مختلف النشاطات الاجتماعية والثقافية والرياضية.

ولم يكن يسمح لمحاولات بعض رفاقه في الحزب أن يستأثروا بالفعاليات الطلابية على حساب الآخرين.

تلك المداخلة بينه وبين نفسه عن تجاربه و نجاحاته وصدق تفاعله مع زملائه دون استثناء أنسته أنه أمام رفاقه الذين انتظروه للتنسيق والإعداد والاستعداد. لامه الرفاق لتأخره متسائلين :

_ ألا ترى أن موعد مؤتمر الفرع بعد ثلاثة أيام ولم نُسَمِ قائمتنا بعد..

_ نعم أعرف، حقاً لقد تأخرنا.

www.alkottob.com

_ من هي سعيدة الحظ التي أنستك الموعد ؟

_ يا جماعة ما هذا الهزار، لم أتأخر إلا قليلا ..

_ أنت بالذات يجب أن تكون حاضراً قبلنا..

_ لابأس، أرجو المعذرة...

_ إنها معركة ويجب أن نفوز بها ..

_ لا ليست كذلك ..إنها تنافس ديمقراطي..والجدير بتمثيل القاعدة الطلابية هو الرابح عن حق..

_ أنت طوباوي في تفكيرك، إنهم ينشرون الإشاعات والأقاويل الكاذبة، ولا يحترمون مناقبية العمل الطلابي..

_ هذا دليل ضعفهم ولن تنطلي محاولاتهم إلا على الأغبياء، زملاؤنا محصنون بالوعي ولا سبيل إلى خداعهم.

وتساءلوا أين قوته لدرجة أن ثقته بانتصاره في الانتخابات كبيرة، آه....إنه يعرف كيف يداوي جراح الآخرين، لم يكن يوماً ضبابياً في مواقفه، إنه جريء في طرحه يقول ما يرضي الجميع ويتصرف حسب رغبة الجميع، وكثيراً ما كان يصطدم مع قيادته التي تنقل له احتجاج بعض المتزمتين وشكاواهم، وكان يجد دائماً الردود المقنعة التي لا يملك أحد إلا قبولها، بل والثناء عليها..هو يعرف تماماً أنه استطاع أن يؤثر كثيراً في مسيرة الحركة الطلابية الأردنية في جامعة دمشق، وأن ينقلها من حالة التقوقع والركود إلى حالة تضج بالحركة والنشاط والحياة، وحتى القوى السياسية التي كانت تعزل نفسها عن المشاركة والتفاعل لم تجد مناصاً من تغيير موقفها والانخراط في العمل الطلابي الذي شهد نشاطاً واسعاً ونوعاً من التنافس الشريف على استقطاب القاعدة الأوسع في الساحة الطلابية.

ولكن ثمة شعور بالقلق ينتابه بين حين وآخر فالمؤتمر العام يختلف عما سبقه من المؤتمرات إنه يخشى التوقعات غير المحسوبة . رغم شعبيته الواسعة وقدرته على الإقناع و مزايا شخصيته المحببة فالمتغيرات السياسية على صعيد الحزب أدت بالضرورة إلى انقسام التنظيم الطلابي.

وكثير من رفاق الأمس، أصبحوا خصوماً اليوم، وهم ينشطون في الاتجاه المعاكس لإثبات حضورهم، والاستئثار بأكبر عدد من المقاعد لقيادة الحركة

www.alkottob.com

الطلابية.

إنهم الأكثرية عدداً ولكنه يعرف نقاط ضعفهم إنها التزمت والانغلاق على أنفسهم، وحجب أية محاولة للانفتاح على القوى الأخرى، وإدعاء ملكهم للحق والصواب دون غيرهم، تلك لن تكون في صالحهم حتماً،وهو قادر بالتأكيد على تشكيل محور تلتف حوله كل التيارات الأخرى وسيثبت لهم تهافت طروحاتهم وعجز ممارساتهم التي لا تلقى صداً إيجابياً.. كان واثقاً من نفسه ولكن لم يسمح أبداً للغرور بالسيطرة عليه..

عندما انتسب إلى صفوف البعث كان فتى يافعاً في المرحلة الثانوية، لم يتجاوز عمره السادسة عشرة. لم يكن وقتها يدرك أكثر من شعارات عامة، حماسته المفرطه في تنفيذ المهمات الحزبية، وتوزيع النشرات التي يصدرها الحزب كادت أن تقوده إلى الاعتقال، لولا بعض الحظ ،ومهارته في التخفي عن أعين رجال المباحث التي لا تتسامح أبداً مع أية شبهة أو شك .

إن انتقاله من بيئة إلى أخرى، ومن العمل السري إلى العلني، والظروف الجديدة التي وفرتها الحياة الجامعية في دمشق. طورت وعيه كثيراً فكرياً، وثقافياً، وسياسياً، ساعده في ذلك أيضاً تخصصه في دراسة الفلسفة والاجتماع وملكة خطابية رائعة يترجمها صوته الجهوري إلى فعل مؤثر في نفوس المستمعين.

وهذا ما زاد من شهرته في الوسط الجامعي.. لم يكن أحد يعرف من أفراد عائلته ارتباطه بالحزب، ويوم أصر على استكمال دراسته الجامعية في دمشق راود عمه الشك بعد أن فشل في إقناعه باختيار أي بلد أوروبي. وتركه غاضباً دون أي وعد بمساعدته. ليس نادماً هو بالتأكيد وإن عانى من بعض الصعوبات المادية، فالمنحة الجامعية التي يتقاضاها والقليل مما يرسله والده تكاد لا تكفي مصروفه الشهري، وهو الذي يعرف بكرمه بين أقرانه. لقد كان ذلك اختياره وعليه تحمل تبعات ذلك ..

انسحب من الجلسة معتذراً لإعداد كلمته التي سيلقيها في المؤتمر وعلى باب الكافتيريا التقى زميلته مريم البحرانية بابتسامتها الرقيقة المعهودة، حيته بحرارة وذكرته بحفلة عيد ميلادها ليلاً..

_ لا تنسى الموعد اليوم، الشلة بانتظارك..

_ وهل يمكن أن أنسى يوماً سعيداً كهذا..؟

www.alkottob.com

_ يهمني أن تكون أول الحاضرين.

_ في الثامنة مساء سأكون في حضرة الأميرة الخليجية..

وافتر ثغرها عن ضحكة عالية لبث صداها في مسامعه وهو يدلف باب الجامعة الخارجي متوجهاً إلى موقف الحافلة التي تنقله إلى بيته.. أوشكت أشعة الشمس أن تلملم خيوطها عن الذؤابات العالية لأشجار الكيناء، على جانب الطريق النازل والمصطفة بهندسة رائعة، وكأنها أضحت جزءاً من المتحف الوطني المقابل لها، بينما تترقرق ساقية مياه جارية فصلها بردى عنه لتنساب بحرية وهدوء وتبعث في النفس شعوراً غامضاً بهيجاً ربما هو سر من أسرار هذه المدينة الجميلة التي تأسر العابرين فيها..

كانت الحافلة تكتظ بالراكبين معظمهم من طلاب وطالبات الجامعة وقد وجد مقعداً بصعوبة، هيكلها الخارجي، ومقاعدها القديمة يستدل منها أنها تعود إلى الخمسينات، وتتهادى في مسيرها كحصان أشرف على نهاية الخدمة.. اجتازت الحافلة محطة الحجاز والقصر العدلي، وعبرت سوق مدحت باشا المسقوف بصفائح الحديد، حيث تنتشر روائح البهارات القوية المنبعثة من محلات العطارة، التي يشتهر بها. ومن نهايته عبرت حارات دمشق القديمة حتى الباب الشرقي خط سيرها الذي لم يتغير منذ عشرين عاماً حسب تقديره.. منذ صعوده إلى الحافلة وحتى نزوله إلى بيته في جادة جعفر اختلطت في ذهنه أفكار مبعثرة.. الهدية التي سيختارها لزميلته البحرانية.. قلم، كتاب، كنزة، البوم صور.. هي تعرف أنه لا يستطيع شراء هدية غالية الثمن وهي لا تحتاج شيئاً ومصروفها الشهري يعادل ما ينفقه في عام.. سيلف القلم بأوراق زاهية كثيرة كي تبدو هدية كبيرة، وعندما تفتحها ورقة بعد أخرى ستضحك كثيراً وهذا ما يسعدها.. لينسى إعداد الكلمة اليوم وهموم المؤتمر والانتخابات فمناسبات المرح واللهو لا يستطيع إغفالها فكيف إذا كان عيد ميلاد زميلته الرائعة..

ودخل غرفته.. وتناول قصاصة ورق مدسوسة من شق الباب التقطها بلهفة.. لا أستطيع أن أراك اليوم، الياسمينة ستبقى وحيدة لن أعبث بزهورها التي تحبها أتمنى لك وقتاً سعيداً.. أميرة..

طواها بحنو في جيبه واستلقى على سريره، ثمة شعور بالكآبة تسلل إلى نفسه.. نظر إلى السقف الخشبي، والجدران الصامتة ولوحة قديمة لحارة دمشقية تشعره بألفة غامضة.. الزقاق الضيق والبيوت المتقابلة تعانق بعضها بعضاً..

www.alkottob.com

والباب الخارجي الصغير يقود إلى فناء واسع تتوسطه نافورة رخامية رائعة ينسكب ماؤها الفضي في الحوض المرمري وكأنه من عشرات السنين لم ينقطع، أشجار الليمون والنارنج تظلل الغرف المتجاورة وكأنها شيدت أيام الأمويين أو العباسيين.. أما أكثر ما يثير دهشته، تلك الياسمينة المعلقة على السطح تنشر روائحها العطرة مع كل هبة هواء .كم يحب أهل هذه المدينة.. أشجار الياسمين.. كأن هناك علاقة سحرية بينها وبينهم. في ظلها تنتظر حبيبته حتى تستقبله بابتسامة وترميه بضمة من زهورها البيضاء الغضه..

إنه محظوظ بلا شك بالسكن عند هذه العائلة اللطيفة التي تجاور بيت حبيبته، لم يشعر يوماً أنه غريب بينهم، و لم تمر فترة قصيرة حتى أحس أنه فرد منهم.. ليس صحيحاً ما قيل يوماً أن العائلة الشامية منعزلة أو متزمتة.. فالعادات والتقاليد متشابهة ولا توجد فروق تذكر.. لو كانت معه أميرة في الحفلة الليلة.. كم يكون ذلك جميلاً.. لابد أنه سيكون محط غيرة الجميع.. فوجهها يزيده انجذاباً كلما نظر إليه.. وعيناها لا يمكن لأحد أن ينجو من أسرهما، وشعرها المنسدل على كتفيها لا يستطيع مقاومة إغراءه، وابتسامتها تنثر فراشات ملونة في كل اتجاه، أما صوتها الساحر وحديثها المشبع بثقافة عالية تجعلها فتاة استثنائية بكل المقاييس.. ربما يكون ذلك مبعث الرقابة الدائمة التي تفرضها العائلة عليها.. هو لا يعرف تماماً ذلك السر الخفي الذي يهز كيانه كله كلما التقى بها، كثيرات هن صديقاته ولكنها وحدها تأخذ كل تفكيره، لا يعرف تفسيراً لذلك إنها مشاعر تنغرس في الذات لا تحتاج لمقاييس من أجل فهمها..

حلبة الرقص في" الكاف دي روا " تكتظ بالراقصين وموسيقى الجاز العالية تفرض ايقاعاتها السريعة، لا يمكن لك أن تتوقف قبل أن تستنفذ قواك.. ومريم التي استقبلته بترحاب حار أشارت إلى وقف الرقص وسارعت إلى فتح هديته وأصدقاؤها وصديقاتها يراقبونها بلهفة والضحكات تجاوزت صوت الموسيقى بعد أن نزعت الغلاف الأخير.. وسحبوه إلى ساحة الرقص.. الحركات سهلة ولكنها عنيفة وسريعة وهو يعشق هذه المناسبات القليلة التي يتاح له حضورها وهو يعتبر ذلك متنفساً للطاقات الهائلة التي يختزنها الشباب وتعبيراً عن ممارسة حضارية يجمع هؤلاء الأصدقاء في جو احتفالي جميل.. معظم رفاقه في الحزب يستهجنون هذه المظاهر ويعتبرونها تقليداً برجوازياً مرفوضاً ولكنه لم يكن يعبأ برأيهم بل كان يجده متخلفاً وكثيراً ما جابه المتزمتين منهم لإقناعهم بصواب نظرته .

الفن كالحياة وليس ملكاً لشريحة اجتماعية دون أخرى، أن نلهو ونمرح على

www.alkottob.com

أنغام موسيقى الجاز أو على صوت ناي أو طبلة لا فرق.. وهو يعرف أن بعض المعقدين يتهامسون فيما بينهم ويشككون بصدق انتمائه للحزب كونه ابن عائلة برجوازية رغم أن والده متوسط الحال لا يكنز ذهباً أو فضة ولا يملك أراض شاسعة أو عقارات كبيرة. ما ذنبه إذا كان عمه أو أقرباؤه من أغنياء عمان المعروفين.. إنه تفكير عاجز لا يستحق التوقف عنده أو مناقشته..

توقف إيقاع الموسيقى الصاخب، وانسابت نغمات هادئة شجية بلحن حالم.. أين تلك الأيام يا أصدقائي.. وخفتت الأنوار وكأن لمسة سحرية أخمدت ذلك الصخب الماجن.. تعانقت الأيدي وتلاصقت الأجساد وتلاشت الفواصل بينها وسرت وشوشات خافتة تعطرها أنفاس الصبايا العاشقات.. مجموعة فريدة من الشباب والشابات من المنامة وعمان ودمشق ومصر وتونس والخرطوم ونابلس والدار البيضاء.. كم هو جميل ذلك.. إنها حفلة رائعة.. كان شارداً ويده تطوق خصر صديقته مي التي كانوا يدللونها مايا وعيناه تراقبان الأضواء المتحركة وهي ترسم دوائر ملونة على أرض الصالة المرمرمية، فتزيده خشوعاً واستغراقاً أمام نظرات عينيها الخضراوين.. إنها صديقة مميزة ولكنه يدرك أن علاقتهما لن تتجاوز ذلك، رغم ما تبديه من عواطف جياشة نحوه وهو في وضع لا يفكر فيه بالارتباط بفتاة مثلها لا تخفى على أحد هيئتها الأرستقراطية، رغم محاولاتها إخفاء ذلك بالتقرب لمنابت اجتماعية مختلفة وحفظ المفردات الثورية والدفاع عنها..

تتقن الفرنسية والإنجليزية أكثر من العربية. أرسلها والدها إلى مدرسة داخلية في بيروت محصورة بأبناء النخبة من طبقة الأثرياء والأمراء والشيوخ ولم يكن يرغب بعد أن أنهت دراستها الثانوية أن تلتحق بجامعة دمشق، إلا أن والدتها أصرت على ذلك لتبقى قريبة منها.. الخدم والحشم رهن إشارتها، ومربيتها الفرنسية، ومعلمتها العزف على البيانو، ترافقها في أكثر طلعاتها خارج البيت، ورغم أنها تحتفظ بصور "غيفارا"إلى جانب صور ممثلها المفضل "الان ديلون " وتحفظ عدداً من الجمل الثورية إلا أن ذلك ليس إلا نوعاً من ممارسة ترف فكري مختلف، نمط من أنماط السلوك المغاير لوضعها العائلي، هو متأكد أن انجذابها إليه لا يعدو مرحلة عابرة سرعان ما تنسى أمام حقائق الحياة.. ألقت رأسها على كتفه وهو ساهم لا ينبس بكلمة.. لماذا تتداعى كل هذه الأفكار في مخيلته في هذا الجو الرومانسي الحالم .

كثيرون يتمنون أن تتحدث معهم مجرد حديث، وهي تغفو بين يديه على حلبة الرقص، وحرارة جسمها تلفح جسمه كله بحنان ونشوة.. لو كانت أميرة معه

www.alkottob.com

الليلة لانصهرا معاً، وذابت كل الفواصل التي تحد من علاقته معها.. ومع صوت الأغنية الفرنسية "الثلج يهطل" صمتت الوشوشات والهمسات ولم يعد هناك سوى قلوب تخفق وأقدام تنتقل بخفة و بطئ، وعيون حالمة، ترجو أن يستمر ذلك، لوقت طويل.. وفي اللحظة التي انتهت الأغنية، انطلقت الموسيقى سريعة الإيقاع، وانسحب الجميع إلى ركنهم في الصالة إلا مايا التي لم يجد بداً من مجاملتها في رقصتها المفضلة والتي لا يعرف من حركاتها إلا القليل مما دربته عليه وهي التي تعشق لحن "الدانوب الأزرق " لشتراوس، والتي لا يمكن لها أن تنتظر موافقته.. كانت تلف وتدور وتنقل خطواتها بخفة فراشة ربيعية، حاول مجاراتها وكاد أن يكمل الرقصة لولا تعثره وسقوطه على الأرض ساحباً إياها معه، ولكن سرعان ما رفعته وسط ضحكة مجلجلة أنسته خجله وارتباكه وتابعت الرقصة، لم تسمح له حتى بالاعتذار.. كانت لاهية وسعيدة وردت تحية الساهرين الذين صفقوا لها بحرارة، بابتسامة وادعة بينما أفراد الشلة يصفرون ويصيحون.. برافو.. برافو مايا..

في طريق العودة إلى البيت ساروا مشياً رغم المسافة الطويلة من حي الشعلان إلى باب توما، كانوا سعيدين بالحفلة الراقصة التي جمعتهم مع صديقاتهم وأصدقائهم ولم تكلفهم شيئاً، فقد أصرت مريم على دفع تكاليفها كاملة، ولم تسمح لأحد المساهمة ولو بليرة واحدة.. كانوا يثرثرون ويضحكون، والشوارع خالية لا يعكر هدوءها سوى عبور بعض السيارات المسرعة..

_ كانت ليلة جميلة .قال نسيم .

_ لا إنها رائعة.أجابه نزيه وتابع موجهاً حديثه إلى عاصم:

_ ولكنني أعتقد أن أمين الشعبة سيغضب فيما إذا عرف بسهرتنا هذه الليلة.. إنه متزمت ويرى أن ذلك سلوكاً برجوازياً علينا تجنبه ..

أجابه عاصم :

_ إذا كان ذلك تفكيره، فهو ساذجٌ لا يحق لأحد التدخل في حياتنا الخاصة، إذا كانت لا تؤذي الآخرين أو تزعجهم ..

قال نزيه :

_ إنه يدين هذه المظاهر ويعتبرها منافية للسلوك الحزبي السليم..

علق عاصم..

www.alkottob.com

_ هراء.. الرقص كيف ما كان تعبير عن الفرح وحالة وجدانية في كل زمان ومكان .

تابع نزيه..

_ إنه متعصب لرأيه ولا يقبل النقاش في هذه الأمور .

رد عاصم..

_ هذه عقليّة متخلفة، إن لم تتطور تتجاوزها الحياة ..

قال نزيه :

_ المشكلة أنه صاحب قرار، وقد يوجه لنا تنبيهاً أو إنذاراً ..

رد عاصم..

_ إنها الحماقة بعينها، وكيف له أن يعرف بحفلتنا هذه الليلة..؟

تدخل نسيم قائلا:

_ افترض أنه عرف ..

وتدخل نزيه مقاطعاً ..

_ لا تفسدوا ليلتنا في هذا النقاش العقيم.. إنها حفلة لا تنسى، وقد زاد احترامي لمريم أحسست أنها تختصر صبايا الخليج فيها إنها أميرة حقاً ..

ورد عليه نسيم ..

_ جميعهن رائعات.. علينا أن نخطط لرحلة خاصة.. الرحلات التي يقوم بها الاتحاد جامدة الخجل والحذر يمنع الانطلاق، الكل يراقب وعليك أن تحسب كلماتك مع أية زميلة لك..

_ ما هذا يا نسيم ؟ أجابه عاصم.

_ هذه هي الحقيقة ألأنك رئيس الاتحاد تشجع الرحلات العامة، ألا تذكر المشكلة التي كادت تتحول إلى شجار عنيف لمجرد أن زميلنا حاول المزاح مع زميلته..

رد عاصم ..

_ أذكر ذلك، ولكني أعرف أنه علينا تطوير عقليتهم.. هناك نسبة كبيرة من زملائنا لم يعتادوا على أجواء الاختلاط والحياة الاجتماعية السوية..

www.alkottob.com

تساءل نسيم ..

_ وهل مطلوب منا أن نغير العالم ..؟

_ نعم هذا واجبنا.. إن لم تساهم أنت وأنا والآخرون بالتأثير في محيطنا لا يحق لنا الانتماء إلى حزب تقدمي .

قال نسيم:

_ أنت مثالي في طروحاتك..

_ وهل الواقعية أن أستسلم لما هو قائم؟ بالعكس علينا أن ننطلق من هذا الواقع لتغييره، هناك كثير من الظواهر المرضية ولأننا نعي ذلك علينا أن نسعى للقضاء عليها أو على الأقل الحد منها ..

قال نسيم:

_ لا أستطيع أن أجاريك في النقاش، ولكني أرى ذلك حلماً بعيد المنال..

تابع عاصم :

_ أنت متشائم دائماً، نحن طليعة مثقفة وملتزمة، ونملك القدرة على التغيير، ليس بليلة وضحاها نمحو ما تراكم من ظواهر سلبية عبر مئات السنين..

أجاب نسيم ..

_ ربما أنت على حق، لا أدري..

لم يشعر أي أحد منهم بطول المسافة التي قطعوها، عند ساحة باب توما تفرقوا، وذهب كل منهم إلى بيته في الحارة نفسها، وكل يحمل أحلامه الخاصة..

***

ساد هرج كثير في صفوف الطلبة بعد فرز نتائج انتخابات فرع الإتحاد فقد نجح ستة ممثلين للقائمة الأولى التي تزعمها البعثيون، وثلاثة من قائمة المعارضة التي تمثل البعثيين السابقين والذين اعتقدوا أنهم يجمعون القسم الأكبر من القاعدة الطلابية.. وفسر البعض أن وجود عاصم على رأس القائمة الأولى هي السبب الأهم في حصولها على هذا العدد من الأصوات، والبعض الآخر أعادها إلى

www.alkottob.com

تجربة المستقلين مع الفردية والاستئثار التي كانت تحكم بعقلية من تبنوا المعارضة، أو ربما لردود فعل ثأرية أو شخصية ضد هذا أو ذاك.. ورغم أن هذه النتائج أعادت التوازن إلى مسيرة فرع الإتحاد في دمشق، إلا أنها لم ترض كثيراً قيادة الحزب، التي رأت في الفئة التي تمثل القيادة المنشقة والمتسلطة تشكل تحدياً، أو على الأقل عائقاً في قيادة القطاع الطلابي واستقطاب العناصر الجيدة التي تخدم مسيرة الحزب.. ولكن جو التسامح السائد، والمناخ الإيجابي الذي اتسعت دائرته مع الظروف الجديدة، لم يسمح بردود فعل قاسية من بعض الذين يعتقدون أنهم وحدهم يملكون الحقيقة، وأن الضرورة تقضي بكف يد كل من يحاول الإدعاء بغير ذلك .

في قرارة نفسه شعر عاصم بزهو وسرور بعد انتصاره في معركة الإنتخابات الحالية خاصة وقد راهن كثيرون على ضآلة فرصة نجاح قائمته.. فالتنظيم الطلابي الذي انشق عن الحزب تحت شعار الشرعية واليسار، كان يمثل الغالبية العظمى من الجهاز الحزبي. لم يبق معه إلا عدد محدود من رفاقه وأصدقائه يمكن الإعتماد عليهم.. وهكذا جاءت النتائج مفاجئة وخارج كل التوقعات ..

خرج المؤتمرون من قاعة كلية الهندسة إلى باحتها، وكل فريق يقيم النتائج من زاويته الخاصة، والتفت حوله مجموعة كبيرة من زملائه و اقترح أحدهم عليه الاحتفال في المطعم المقابل ..

– شاي وقالب كاتو وليس أكثر ..

– هذا غير لائق يا عصام

– ولماذا.. ألا يستدعي هذا الفوز أن تحتفل به

– إن هذا استفزاز بشكل ما لزملائنا الآخرين، علينا ألا نشعرهم بحجم خسارتهم ..

– أنت طيب أكثر من اللزوم.. لم يتركوا شيئاً سيئاً لم يتهمونا به، يمينين انتهازيين، منشقين، ألم تسمع هذه اللازمة التي ينشرونها في كل مكان ..

– لا بأس.. دعهم يقولون ما يشاؤون، نحن نعرف أنفسنا، وسيكتشفون وحدهم مع الوقت خطأ حساباتهم ..

وقاطعه زميل آخر :

– يا أخي مثاليتك هذه زائدة عن حدها، لو كانت النتائج لصالحهم كما

www.alkottob.com

خططوا، لحولوا هذه الساحة الى عرس، نحن لا نريد أن ندبك ونرقص، نريد أن نشرب الشاي فقط.. يالله يا شباب ..

ولم يجد مناصا من الذهاب معهم، و إلا بقي وحيدا على قارعة الطريق ..

لم يمكث طويلا مع زملائه، وتعلل بموعد خاص، وخرج..

هناك من تنتظره بلهفة وشوق، مساءات دمشق تشعره بدفء غريب، هذه المدينة اسطورية ليست ككل المدن ..

لماذا يعشقها كل هذا العشق، شوارعها، بيوتها، أشجار الياسمين المتهدلة على جنباتها، ليلها ونهارها شمسها وهواؤها فتياتها وكأنهن خلاصة جمال صنعته حضارات مرت واستقرت في ربوعها.. هناك أسرار مغلقة لا نجد تفسيراً لها.. ألان له حبيبة فيها.. أميرة من أميرات دمشق مختلفة واستثنائية، يظن أنه لا يولد مثلها منذ قرون.. كانت تنتظره هناك تحت الياسمينة المزهرة على السطح، لم يعرف كيف قطع الدرجات الموصلة بسرعة خاطفة، رغم تعب نهار طويل، كانت ابتسامتها التي ارتسمت على ثغرها القرمزي، مغناطيسا سحريا هائلا، ضمها إلى صدره وقبلها قبلة عنيفة شعر أن حرارتها كافية لتحرق غابة مترامية الأطراف ..

– أنت بوهيمي يا عاصم لم تسلم علي بعد ..

– أتحرق شوقا إليك، أخشى أن أفقد اللحظة، ربما يأتي أحد بعد قليل.. وهل تعتقدين أنني قادر على ضبط أعصابي وأنت أمامي ..

– إنك تبالغ في مشاعرك نحوي

– ألا ترين كيف أتلاشى في عينيك، لا أبالغ يا أميرتي.. مشاعري لا أستطيع وصفها بالكلمات إنها حالة وجدانية صوفية لا يدركها إلا من يعيشها ..

– تأخرت كثيرا اليوم ..

– لا خيار لي لقد استمرت أعمال المؤتمر حتى العصر، و ها أنا بين يديك الآن..

– لم تخبرني عن النتائج.. طمئني..

ابتسم بثقة ..

– خمني ..

– لاشك انك فزت بالانتخابات.. أهنئك من كل قلبي ..

www.alkottob.com

-شكراً.. عندما أكون معك أنسى كل شيء إلا أنت..

أنت نار خرافية تحرق كل من يقترب منها.. ضحكت بنشوة عارمة وشدت على يده..

– أنت جامح الخيال، تحاصرني في هذا الوصف الجميل، فأستسلم للحلم كل ليلة قبل أن أنام .. أحياناً اصدق نفسي أنني كذلك ..

– أحيانا ..ألا ترين إنك أسطورة. أسطورة إفريقية لو كنت هناك لأبتهل إليك أبناء الأدغال لتحمينهم من المجهول ..

لم تعلق وقطفت زهرة الياسمينة وقدمتها إليه ..

كانت الشمس الغاربة قد رسمت لوحة أرجوانية رائعة فوق ذرى قاسيون، والريح الخريفية ترحّل غيوما متناثرة عن سماء دمشق، وتشكل منظرا بانوراميا مذهلا لا تدرك روعته سوى أعين العاشقين ..

www.alkottob.com

قليلا ما كان يتابع محاضراته الجامعية، فشرب القهوة والشاي في كافتيريا الكلية، والأحاديث والنقاشات السياسية تأخذ فترة طويلة من وقت كثير من الطلبة.. والمشكلة أن طاولته تكاد لا تخلو ممن يحسبون على تيارات سياسية مختلفة، يذهب أحدهم ليأت غيره.. وفنجان القهوة تحول الى عادة صباحية، كثيرا ما كانت تمتد حتى فترة الغذاء فيحمل كل كتبه، مازال بعضها على حالتها،.. متوجها الى حيث مطعم الجامعة في القبو الواسع، حيث وجبة الغداء الغنية و الرخيصة الثمن ..

لا يعرف لماذا كان يشكل موضع استقطاب للآخرين.. هل هي دماثة خلقه، أم سعة اطلاعه، أم قراءاته الكثيرة التي تزوده بحصيلة معلوماتية واسعة، أم أسلوبه في الحديث وقدرته على ضبط أعصابه في المواجهات الساخنة، التي تشعر الآخرين بغضب مكبوت تفقدهم أعصابهم أو تدفعهم إلى الانسحاب.. لا يساوم في قناعاته، و لكن ليس من أولئك الذين يصادرون حق غيرهم في إبداء رأيهم، وربما هذه الميزة وحدها جعلته مختلفا عن غيره.. كثيرا ما كان يواجه بتلميحات قاسية من رفاقه السابقين، الذين يلازمون بعضهم بعضا في ساحات الجامعة، أو الكفتيريا أو المطعم ولكن هدوءه العجيب وابتسامته الودية، التي ترتسم على محياه كلما واجه موقفا مثيرا واستفزازيا تعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي، وتحرم الطرف الآخر من افتعال مشكلة، قد تتطور إلى التشابك بالأيدي وتصبح حديث الوسط الجامعي.. لقد سمع أمجد وهو أكثرهم تعصبا و شراسة يقول لرفيقه يوسف وهم على الطاولة المقابلة:

– أليس به دم يا أخي.. كل هذا الاستفزاز لم يثره..

وأجابه :

– انه أذكى من أن يمنحك هذه الفرصة.. رغم مخالفتي له، فإني احترمه..

– لكنه انتهازي سار مع أعداء الشرعية الحزبية.. لقد غرر بكثير من رفاقنا الذين التحقوا به.. يجب أن نوقف نشاطه

– أنت واهم يا صديقي، لم يعد قي مقدورنا أن نفعل شيئا ..

– علينا أن نمنع ذلك ..

www.alkottob.com

– ما هذا الذي تقوله ؟ أن الانتماء مسألة شخصية.. لا يحق لنا قمع أحد.. لا نستطيع ..

– إننا نتراجع، لقد فقدنا حظوتنا لدى القاعدة الطلابية علينا أن نفّعل دورنا ..

–اليوم ليس كالأمس، والحماسة وحدها لا تكفى أخطاء قيادتنا هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه ..

نظر إليه و سأله ..

_ إن حديثك مختلف اليوم ما الذي تقوله يا رجل ..؟

_ هذه الحقيقة كما أراها.. لقد أغلقنا أبواب الحزب على أنفسنا، لم نمارس الديمقراطية فعلاً كما نفهمها داخل الحزب ألا ترى الأعداد الكبيرة التي تنضوي في صفوف المنشقين.. وقيادتهم تتعاطى بعقل منفتح مع الجميع، وهي تتمسك بالشعارات والأهداف نفسها، إن ممارساتهم تلقى صدى إيجابياً واسعاً..

_ هيه..أراك تمهد الطريق للالتحاق بهم و العودة إلى صفوفهم..؟

_ لا.. ليس الأمر كذلك، ولن أتخلى عن رفاقي سواء كانوا صائبين أو مخطئين، ربما للعلاقة الشخصية جاذبية أقوى.. لقد حسمت الوضع.. وانتهى..

لم يلحظ أي منهما أنه استرق حديثهما و هما يتابعان الأكل بينما هو يقلب الملعقة بين أصابعه، و قد برد حساء العدس الساخن الذي يحبه قبل تناول الوجبة الرئيسية.. قليل من الرز، وبعض من الفاصوليا باللحم ورغيف من الخبز ازدردها بسرعة ولذة، وقد أنساه الحديث الذي لم يفوت منه كلمة واحدة مجاملة زميلته التي لم تكد تنهي بعض وجبتها، وقال لها معتذراً عندما أدرك خطأه..

_ نسيت نفسي، أرجو المعذرة.. يبدو أن جوعي هو السبب..

_ لا ليس كذلك، أنا أعرف السبب ألم تلاحظ أنك لم تتفوه بكلمة وأنت تصغي لما يقال على الطاولة المجاورة ..

_ هذا صحيح آسف ..

_ لا بأس لقد سمعت بعضه.. أعتقد أن الحديث السياسي يهمك أكثر من أي شيء آخر ..

_ ربما هو كذلك ولكن ليس كل الأوقات ..

www.alkottob.com

_ أنت تغيب كثيرا عن المحاضرات.. وإذا افتقدك أحد يجدك في الكفتيريا.. ألا تمل من هذا الروتين ..

_ لا، كثيراً ما أنسى الوقت في هذه الجلسات مع الأصدقاء .

_ أنا لا أحب الحديث في السياسة، لا أعرف ما الذي يشدني إلى مرافقتك، معي تبدو شخصاً مختلفاً، تتحدث في كل شيء ما عدا الأمور السياسية ..

_ وهل يعقل أن أشغل جميلة مثلك بأمور لا تحبينها ..

_ أنت إنسان غير عادي.. أو هكذا أراك ..

_ هذا إطراء لا أستحقه ..

_ لا، بالعكس، زميلاتي يغتنمن الفرصة للقاء بك والاستمتاع بأحاديثك آه.. لا تنسى موعد رحلتنا غداً إلى بلودان الثلج على ارتفاع نصف متر، ستكون رحلة ممتعة ..

_ أنا خططت للرحلة، كيف أفوتها علي ..

كانت السماء تمطر بغزارة، وحبات البرد تتطاير على الجدار الزجاجي كاللؤلؤ البحراني، وتعصف بأوراق الورد في الحديقة المنحدرة حتى الملعب البلدي، تذكر زميلته الخليجية التي نادراً ما ترتاد هذا المطعم الذي لا يناسب ذوقها، أو على الأصح مكانتها كإحدى بنات شيوخ الخليج، رغم محاولاتها التمرد على تقاليد العائلة، والانطلاق بحرية غير مقيدة بأعراف القبيلة ..

www.alkottob.com

انطلق القطار من محطة الحجاز متثاقلاً وعرباته القديمة تعج بالركاب والعائلات الذاهبة لقضاء يوم شتائي على تلوج بلودان والزبداني، والبرد القارس في تلك المنطقة يتطلّب الاحتياطات الضرورية، والمعروف عن أهل دمشق محبتهم الخروج يوم الجمعة وقضاء الوقت بين أشجار الغوطة الوارفة الظلال أو على ضفاف بردى، ومرتفعات الضواحي القريبة.. لاتهمهم كثيراً وسيلة النقل، من لا يمتلك سيارة خاصة، يستخدم شاحنة كبيرة كانت أم صغيرة، أو عربة يجرها حصان، ولكن القطار يظل مفضلا على غيره. يغادر المحطة صباحا ويعود مع المساء عابرا أهم المناطق التي يرتادها المستجمون.. وتذاكر الركوب تكلف صاحبها مبلغا زهيدا يكاد لا يذكر ..

والحقيقة كما فهمها من سائقه، أن ليس هناك أي مردود ربحي، بل أحيانا تتحمل الشركة خسائر تشغيله، كان يجب أن ينسق من سنوات طويلة، إلا أن الحرص على العاملين إضافة إلى الهدف السياحي وتقديم الخدمات الرخيصة للمحتاجين، أبقاه أسير سكة الحديد تلك .

توقفت الأمطار ليلة أمس ويبدو الجو صحوا، إلا أن الريح الباردة التي كانت تنفذ من النافذة الزجاجية التي لم يتم إصلاحها ربما منذ فصل الصيف، تكاد تجمد الأيدي العارية، وكان بعض الصغار في المقصورة التي تقلهم يلتصقون إلى جانب أمهاتهم يفركون أيديهم طلبا لبعض الدفء.. أما أفراد الشلة فلا يبدو عليهم الاكتراث، فمنذ أن جلسوا على المقاعد العتيقة التي توحى باثاريتها اخذوا يتمازحون ويضحكون، يصفقون ويغنون فالإثارة التي تحدثها المجموعة لا تترك أحداً للهدوء وخاصة الفتيات الجميلات اللواتي أضفين جوا لاهيا ومرحا. وينتقلون من مقطع لأهزوجة ريفية أو أغنية لفيروز ومن لحن عراقي الى مغربي ..

والمسافة التي تقطعها السيارة بنصف ساعة أو اكثر بقليل، تحتاج من هذا القطار الأثري إلى ساعتين، ولكن الإحساس بالوقت غير وارد عند شباب منطلقين وعابثين.. عبر القطار وادي بردى فحجبت ظلال الأشجار الباسقة، والجبال الرابضة على جانبيه، نور شمس سرقت ريح شمالية قطبية أشعتها فأضفت العتمة جواً غرائبيا دفع بانفعالاتهم إلى أقصى حدودها وارتفعت معها وتيرة الغناء لتطغى على ضجيج الحديد وصفارة القطار، التي تكاد لا تهدأ ما

www.alkottob.com

بين منعطف وآخر، وبلغ الصياح مداه بعد تجاوز النبع الأخضر و الدخول إلى سهل الزبداني الفسيح الذي غمرته ثلوج ناصعة البياض، انعكست عنها أشعة شمس شتائية فتراءت أشجار الكرز والتفاح و الأجاص و السفرجل العارية و المنتصبة على امتداده، كلوحة أسطورية تخلب الألباب. ساد الصمت وانحشروا جميعا على النوافذ الزجاجية عيونهم منبهرة بهذا المنظر الساحر الذي يراه بعضهم لأول مرة في حياته، ولم يعد يسمع سوى صرير العجلات وكلمة ياه المعبرة عن اندهاش كبير ..

سارع الجميع إلى القفز من العربة، بعد أن توقف القطار في محطته الأخيرة. وأخذ الشباب يلقون كرات الثلج على رفيقاتهم اللواتي ردين عليهم بسرعة، تراكضوا، لحق بعضهم بعضا، انزلقوا على الثلج الذي غطى نصف سيقانهم، كان لهوا رائعا ولكن عليهم أن ينطلقوا مشيا إلى قمة الجبل، قبل أن يذهب النهار فالطريق الصاعدة الى هناك ليست قصيرة ..

ولأن صاحبنا عاصم ملم بأمور الكشافة فقد قاد المسيرة نحو الجبل ..

لم يكن الصعود سهلا فقد ازدادت كثافة الثلج في خاصرة الجبل، وغاصت أرجلهم حتى الركب، والوصول إلى القمة بات أمرا مستحيلا، فاسترخى كل مع صديقته على البساط الأبيض، مسندين ظهورهم على الصخور البارزة المبعثرة بلا انتظام، حيث الصمت و السكون يلف المكان وليس غير الأنفاس اللاهثة التي سرعان ما تتكثف متحولة إلى رذاذ ثلجي، إحساس غامض بالغبطة تدل عليه ضحكات جذلى يتردد صداها حتى المدى البعيد.. لا يدري كيف طوق ظهر صديقته بيده عابثا بخصلات شعرها الحريرية، وهي مستكينة إلى جانبه كحمامة أموية، وبدا له أنها تنتظر المزيد و قد تخيل حرارة جسمها اللافحة في هذا الجو الجليدي مختزلا حرارة صحراء الخليج و الربع الخالي معا .

إلا أن ثمة هاجسا داخليا، كثيرا ما يمنعه من التعبير عن عواطفه الجياشة مع صديقاته اللواتي كثيرا ما ضقن ذرعا به..

حاول أن يجد تفسيرا، هل هي برودة ذاتية ..أم توصيات أمه التي لا تمل من تكرارها كلما تحدثت إليه ..إن أحببت واحدة لا بأس ، أما أن تعبث بقلوب بنات الناس فلا.. كثير من أصدقائه لا يلقون بالا لذلك ..

نسيم ينتقل من واحدة إلى أخرى، يغيرها كما يغير قميصه، وكذلك عصام، نزيه الوحيد الذي يماثله في سلوكه .. هل هو كبرياؤه النبيل الذي لا يسمح باللعب

www.alkottob.com

في قلوب الأخريات.. ربما ..

قالت مريم التي غمرها إحساس بالسعادة و النشوة وهي تجول بعينيها على بيوت البلدة المعمدة بالثلج والمستلقية بخشوع على سفح الجبل ..

– أتعرف لماذا أحب مرافقتك دون الآخرين ..؟

– لماذا..

– أشعر باطمئنان كبير كلما كنت معك ..

– هذا يسعدني كثيرا ..

– هناك شيء فيك يجذبني إليك لا أعرف تفسيرا له ..

– هذا يشبع غروري يا مريم ..

– لا لست مغرورا.. الكل يعرف ذلك.. ولكن هناك شئ غامض محبب في شخصيتك ..

– كنت أعتقد أني واضح كهذا الثلج الناصع البياض ..

– المرأة أقدر بكثير على فهم الرجل، حتى فهم الرجل لنفسه ..

– من يمتلك عينيك الصحراويتين قادر على اختراق قلب أي رجل ، لا بل على اغتياله ..

– أنت تسلبني بتعابيرك دائما، لا أنكر أنني ابتهج من أعماقي ..

مسح بيده على شعرها المسترسل كخيوط حرير صينية، يراهن على أن جسدها المعمد بشمس الخليج، وحكايات حوريات البحر، وأغاني غواصي اللؤلؤ، تآلفت معا لتبعث هذه الأميرة تحديا لجميلات المتوسط ، اللواتي يبحثن عبثا عن هذا السحر البرونزي القاهر ..

لماذا لا يملك الجرأة ويعتصرها في أحضانه.. لا.. يكفي الاستغراق في هذا الحلم الجميل، لن يخل بوفائه لحبيبته..

قالت بعد أن ضغطت على يده ..

– إني أحسدها كثيرا على رجل مثلك.. لقد ملكت قلبك، وروحك، يبدو انك لست معي أنت معها ..

وتعثر بالتعبير بعد أن فاجأته بسؤالها.

www.alkottob.com

– من تقصدين ،.. لماذا تذكرينها ونحن معا ؟

– لا تكابر إنها معك في كل مكان، أنا أفهم شرودك ربما تتخيلها مكاني ..

-أنت بالنسبة لي أفضل الصديقات والأصدقاء.. وتعرفين لماذا لا أتجاوز حدودي، هناك من يعد الأيام لعودتك ..

– أخشى أن لا أجد الرجل الذي أحلم به ..

– ماذا ..؟أي رجل سيكون أسيرا بين يديك.. تشكلينه كما تريدين ..

– أنا أحتاج العكس، ليتني أحظى بذلك.. لم يبق إلا بضعة شهور على تخرجي.. وارحل بعدها إلى بلدي .أحس بكآبة كلما تذكرت ذلك ..

– أنت تتصورين ذلك ولكن حياتك الجديدة تنسيك الحياة الجامعية، ستكون لك اهتمامات مختلفة .

– لماذا لا تأت إلى الخليج ، سأوفر لك، أفضل عمل وظيفي ..

– لم أفكر بعد بهذا الأمر يا مريم، لننتظر حتى نهاية العام الدراسي.. ولكن مثلي غير مرغوب به عند حكومتكم ..

– لا عليك أنا سأتدبر الأمر ..

– مازال الوقت مبكرا.. أمامنا وقت طويل ..

لا يعرف كيف اقتربت شفتاه من ثغرها الملتهب، واعتصر حرارة مخزونة منذ سنوات طويلة حولت صقيع الجبل لأتون محترق لسويعات قليلة، ساد بعدها صمت وسكون لم ينبس أي منهما بكلمة.. هل نكث وعده، أم نسي نفسه في لحظة منفلته لم يملك القدرة على التحكم بها..؟

سارعت الريح القطبية من حركتها ، حاملة معها نتفات الثلج الناعمة، أنهضها بيدها وصاح على زملائه للعودة، وانحدر الجميع باتجاه البلدة بخطى أسرع، وهمة أكبر، بعد استراحة ليست قصيرة أودع فيها المحبون حكاياتهم بين صخور الجبل الصامتة ..

***

www.alkottob.com

www.alkottob.com

لم تجد اللجنة التحضيرية للمؤتمر العام للاتحاد مكانا يمكن أن تجمع عليه الأطياف السياسية الطلابية كافة، أفضل من مخيم للمقاومة على مشارف صيدا في الجنوب اللبناني في الوقت الذي تعذر فيه عقده في أي عاصمة أخرى نظراً لحسابات هذه الجهة أو تلك.. والأحداث المؤسفة التي شهدها الأردن وأدت إلى خروج المقاومة، لم تلئم جروحها سنة ونيف. و كان للإحساس العميق بمرارة التجربة و بعض الممارسات الخاطئة لقيادات المقاومة التي صادرت دور القوى الوطنية و القومية وألحقتها بسياساتها سببا في دفعها لتقديم الدعم المطلوب للحركة الطلابية الأردنية كتعويض نفسي واعتراف بفشل الشعار البائس "كل السلطة للمقاومة " الذي كان له تأثير حاسم في إحداث الخلل لغير صالحها .

كانت الخيمة العملاقة تنتصب في ميدان واسع قريب من البحر، وتنتشر حولها عدة خيم تبدو إلى جانبها كالأقزام، وقد اكتظت بالمؤتمرين والمدعوين من مختلف التجمعات الطلابية العالمية التقدمية الذين اعتراهم شعور غامر بالسعادة فهي فرصة نادرة تتاح لهم في هذه المنطقة، التي تشغل العالم كله.والكرم العربي يتجلى حتى في أقسى الظروف وأعسرها ..

لم يكن مؤتمراً طلابياً عادياً، وإنما كان بمثابة مؤتمر وطني، التقت فيه جميع فصائل المعارضة، ماعدا الأخوة الشيوعيين الذين رفضوا إلا أن يكونوا رهائن خوفهم من ذوبانهم وتهميش دورهم، ولكنهم شاركوا كمراقبين ..

ولم يكن الائتلاف سهلا بين قوى متصارعة كل يدعي صواب نهجه، وكان الخلاف الأشد بين البعثيين أنفسهم، الذين كانوا إلى عهد قريب في مسيرة واحدة، ووجد عاصم نفسه في مواجهة مريرة مع صالح أشدهم ادعاء بالثورية وقدرة على التشكيك و الاتهام، الذي حاول جاهدا عزله مع رفاقه، ولكن ردوده الهادئة ودبلوماسيته المرنة وحرصه على الوحدة الوطنية أرهقت خصومه، فاستسلمت للمنطق الموضوعي بعد ساعات طويلة من النقاش، داخل خيمة لا تحفظ أسرارها كثيراً. وتم الاتفاق على القضايا الإجرائية التي كان من أهمها عضوية مكتب رئاسة الاتحاد الذي كان لصاحبنا مقعداً فيها .

افتتح المؤتمر بكلمات ممثلي الوفود عربية وأجنبية، حيَّت طلبة الأردن ومنظمتهم الطلابية، ودورهم الفاعل في مسيرة الحركة الوطنية، ولم يخلُ أي

www.alkottob.com

خطاب من الجمل الثورية، والتأكيد على اندحار القوى الإمبريالية و الصهيونية، واستشراف المستقبل المنير لحركة التحرر العالمية، وأبرز من تحدث منهم ممثل طلبة فرنسا الذي أوفده التيار الماوي المسيطر عل مقر اتحادهم، بعد أحداث الثورة الطلابية الفرنسية والذي تسلم الدعوة لحضور هذا المؤتمر.. كان صوته الراعد وعباراته العنيفة، تكاد تخترق قماش الخيمة، ويتجاوب صداها الذي يشتد في المقاطع التي تهاجم الإمبرياليين والصهاينة والرجعيين، وتمجيد ذكرى ثورتهم، التي تؤسس لثورة طلابية عالمية، ولكن الجو الحماسي الذي قوبل به، سرعان ما تخلله همسات وبسمات، عندما أخذ يشيد بما سماه "بسوفياتات اربد " التي واصل ترددها بين مقطع وآخر، معتقداً أن هناك عشرات الألوف من عمال هذه المدينة شاركوا في الدفاع عن وجود المقاومة، وهو لا يدري أنهم بضع مئات لا يدخلون في تصنيف مفاهيمه عن الطبقة العاملة، وكاد الضحك ينفجر في القاعة ويؤدي إلى إحراج كبير لولا ثمة ضوابط ذاتية ومعرفة جهله بالأمور التي تحدث عنها، والتي أدرك كثيرون أنها نتيجة تأثره بالحملة الإعلامية التي وجهتها قوى تبنت الماركسية وخاصة في الأوساط الطلابية الغربية.. كان التصفيق حاراً بعد إنهاء كلمته التي أضفت جواً من الحبور على المؤتمرين.. و نظر عاصم إلى زميله ميشيل القادم من إيطاليا.. وقال له ضاحكاً:

– نشاطكم الإعلامي لا يضاهى، وتأثيركم في المجموعات اليسارية في الجامعات الأوروبية واضح رغم قلة عددكم ..

– الإعلام له دور أساسي في تشكيل الرأي العام، ولكن توطيد العلاقات مع هذه القوى له الدور الأهم .

قال عاصم ضاحكاً :

– وهل أنت مقتنع بفهمه ..

– ليس المهم تعبيراته، هو يجهل واقعنا الإجتماعي المهم أنه منحاز إلى جانبنا ..

– صدقني أني استمتعت بخطابه، ذكرني بأسلافه الذين قاموا بثورتهم قبل مائتي عام ..

– كانوا عنيفين بلا شك ..

– صدى انتفاضتهم الطلابية ما زالت تتفاعل في الأوساط الغربية، ولكني أعتقد أن هناك جهات مشبوهة لعبت دوراً تخريبياً في أهدافها ..

www.alkottob.com

– ما قادت إليه من نتائج يدل على ذلك ..

أعلن سامي رئيس المؤتمر الذي انتخب بالإجماع نهاية الجلسة.

كان المؤتمر مناسبة للقاء الأصدقاء القدامى والتعرف على أصدقاء جدد. عانق بحرارة صديقه حميد الذي قضى دراسة الثانوية جالساً إلى جانبه على نفس المقعد الدراسي، تلك أيام لا تنسى تجول بالذاكرة ولا تبرحها وتبدو حلماً جميلاً لفتوة متدفقة نشطة تدفع حيويتها خيالاتهم إلى آفاق لا متناهية، إلى الحد الذي يعتقدون فيه أنهم قادرون على تغيير العالم يوماً ما دون اكتراث بواقع الحياة وشروطها التي لا تتماهى مع أحلام الصبية وتطلعاتهم ..

– كم أنا مشتاق إليك.. لم أعرف عن أخبارك منذ ذهابك إلى إسبانيا.. طمئني عنك ..

– أنا مشتاق إليك أكثر، ومنذ أن دعيت لحضور المؤتمر وأنا متأكد أنني سألتقي بك، إنها مناسبة رائعة ..

– كدت لا أعرفك وشعرك متهدل وشارباك الكثيفان غيرا كثيراً من صورتك في مخيلتي .

–كلنا نتغير يا عاصم.. مازلت أحمل صورنا معاً أيام الثانوية، كانت فترة جميلة في حياتنا من كان يتخيل أننا سنلتقي هنا في جنوب لبنان بعد كل هذه السنوات الطويلة ..

– أجمل ما في هذا المؤتمر مكان انعقاده، يذكرني بمعسكرات الحسين الصيفية والعريف غطاس الذي كان يبذل جهداً كبيراً لضبط المسير، ونحن نتقصد إثارته، و عندما ينتظم الطابور يخلع حطته ويضربها بالأرض صائحاً.. تحيا كاريوكا..

ضحكا من أعماقهما واتجها نحو الشاطئ القريب.

كانت أشعة الشمس قد شارفت على الزوال فانعكست على السطح اللازوردي متلألئة مع الموج الخفيف راسمة لوحة رائعة ما بين شفق الأفق والبحر..

قال حميد:

– فلنسيا مدينة رائعة، شاطؤها يضج بالحياة، أما هنا فالشاطئ ساكن موحش لا ترى فيه إلا بعض النوارس الهائمة، اعتبر نفسك مدعوا منذ اليوم لزيارتي، لا تتحمل سوى أجرة الطائرة ..

www.alkottob.com

– كم بقي على تخرجك من الجامعة ..

– هذا سؤال لا أستطيع الإجابة عليه.. مازال هناك وقت طويل ..

– فهمت.. سأحاول ..

وأشار بيده إلى حسناء تقف مع بعض زملائهم وسأل حميد:

– من تكون هذه ..؟

– إنها.. زوجة حامد ألا تتذكره ..

– بلى.. تبدو سعيدة جداً ..

– هذه رحلة استثنائية بالنسبة لها.. لن تنسى ذكرها أبداً.. كنت أتمنى لو أحضرت زوجتي معي.

– هل أنت متزوج يا حميد ..

– نعم ..

– ومن هي سعيدة الحظ ..

– إسبانية، لكن أهلي لا يعرفون حتى الآن آمل أن لا تفشي السر ..

– لقد فاجأتني.. أتمنى لك التوفيق.. ولكن قل كيف توفق بين دراستك وزواجك.. هل هي طالبة معك ..؟

– لا، إنها موظفة، لا فرق، نحن نتعاون معاً، إننا متفاهمان على كل شيء..

– هل تعتقد أنها ستعيش معك في الأردن مستقبلاً ؟

– و لِمَ لا.. لقد أفهمتها طبيعة مجتمعنا عاداتنا وتقاليدنا كنت سأحضرها معي لولا ارتباطها بالعمل ..

– ما هي أخبار سهى، أذكر أنك أقسمت بأن لا تتزوج غيرها ..

– كانت أحلام مراهقة.. الدنيا تتغير يا صديقي حقيقة لا أعرف عن أخبارها شيئاً منذ ثلاث سنوات، لم يكلفني زواجي اكثر من خاتم الخطوبة و كعكة حلوى و قليلاً من زجاجات النبيذ ..معظم الدارسين في البلدان الأوربية يتزوجون، بعضهم يعودون مع زوجاتهم و شهاداتهم الجامعية و بعضهم بزوجاتهم فقط.

– و أين تضع نفسك أنت .

www.alkottob.com

– أنت تعرف أن عودتي بلا شهادة انتحار.. سأحصل عليها و لو تأخرت بضعة سنوات ..

– ألا تعتقد أن اختلاف البيئة يؤدي إلى اختلاف التفكير..؟

– لا، الإنسان يتكيف حسب ظروفه ..

-ربما.. ولكن ألا تشعر بالغربة في بلد غريب ؟

– أحياناً ..

– هذا يدل على عدم اندماجك كليا في محيطك فموروثنا الثقافي مختلف.. مهما حاولت تبقى غريبا بالنسبة لهم ..

-أنت قومي متعصب، الإنسان إنسان في كل زمان ومكان ..

– هذا حكم ظالم، أرجو أن لا تفهمني خطأ.. أنا لا أقصد التشكيك في اختياراتك.. لكل حياته التي يعيشها كما يريد ..

وإنما أتحدث بشكل عام ..

– حسنا .. وماذا عنك.. إني متلهف لأخبارك .

-سأتخرج هذا العام من قسم الفلسفة و الاجتماع والتحق بالدراسات العليا.. ما زلت أعزباً، و لكنني أفكر بالزواج ..

– هذه أخبار سارة أهنئك من كل قلبي لا تنس أن تدعوني يوم عرسك سأعطيك عنواني و لا تنسى مراسلتي ..

– بالتأكيد هذا أمر مفروغ منه.. ألن تزورني في دمشق بعد نهاية المؤتمر؟

– أتمنى ذلك، و لكن ظروفي لا تسمح سأعود مباشرة إلى فلنسيا ..

– و أهلك.. ألن تذهب إلى عمان ؟

– أنت تعرف الظروف السائدة هناك.. في ظل الأحكام العرفية تكون مخاطرة كبيرة لا داعي لها.. تحدثت مع أهلي قبل مجيئي إلى هنا. سألتقي بهم في بيروت

– أوافقك الرأي، العودة الآن مخاطرة.. سلم لي كثيرا على والديك ..

نظر عاصم إلى ساعته و قال منبهاً صديقه:

www.alkottob.com

– لم يبق سوى دقائق على بداية الجلسة المسائية علينا بالعودة لم يبق لدينا وقت ..

و اتجها معا إلى قاعة المؤتمر داخل الخيمة الكبيرة .

مع غياب الشمس وانسدال العتمة.. بدأت أضواء خافتة لقوارب الصيادين تضيء مساحات صغيرة في البحر، جاذبة الأسماك التي لم يتبق منها الكثير حسب ما سمع من صياد عجوز بعد أن أهلكتها مفرقعات الطامعين بالصيد السهل من غير أصحاب المهنة مع غياب الرقابة والمحاسبة وفقدان الضمير. وازداد أسفه لحكاية الصياد مع صوت دوي انفجار بعيد في عمق البحر، تمنى أن يكون ضد قارب للعدو.. وقال في نفسه ربما هو كذلك.

و تلاشت آثار أقدامهم المرتسمة على الشاطئ مع امتداد الأمواج وهبوب ريح خريفية قوية كانت تصفق جنيات الخيمة محدثة فرقعة قوية أضاعت معها بعض كلمات المتحدثين رغم إصغائه للرد على الأفكار المطروحة أو المواقف الصادرة عن بعضهم معتقدين أنهم يملكون الحقيقة و حدهم ..

***

www.alkottob.com

في الطريق إلى دمشق، كان شارداً رغم حديث متقطع مع زملائه عن جمال الطبيعة الساحر في جبال لبنان، والغابات الخضراء على امتداد النظر والمتعانقة مع البحر، لم تدهشه القصور الفخمة والبنايات الجميلة على جانبي الطريق من بيروت إلى بحمدون إلى عالية إلى صوفر كأنها مدينة واحدة من شاطئ البحر حتى قمة الجبل، مدينة فريدة تأسرك منذ الوهلة الأولى، وتترك في أعماقك نداء يشدك دائماً للعودة إليها..

كان ثمة صور كثيرة تدور في ذهنه.. انتهى المؤتمر بنجاح كبير كما وصفه الإعلان السياسي الصادر عنه وانتخب عضواً في الهيئة التنفيذية التي اتخذت من بيروت مقراً لها وعليه حضور اجتماعاتها الاعتيادية.

ما الذي يضمن استمرارية عملها.. اتجاهات سياسية مختلفة بل ومتناقضة في كثير من الأحيان، وحساسيات لدى بعض رفاقه القدامى.

ليس من السهولة مسحها تماماً، إن خفت غلواؤها بعد سلسلة الحوارات الطويلة والحرص على وحدة المنظمة الطلابية.. الكل بارك الائتلاف بين هذه القوى المتصارعة وإن راهن كثيرون على فشله.. لا شك إن اجتماعاتهم الدورية كل شهر ستشهد سخونة حارة إلا أن وجود سلوى ضمن هيئتهم سيكون له أثر إيجابي في التهدئة.. وتساءل عن حماسها والتزامها بالنضال السياسي وهي التي تمتلك عينين خضراوين ساحرتين، و وجه ناضر تشوبه حمرة وردية، وابتسامة ساحرة، لا تفارق ثغرها ربما لم يلمسه أحد بعد، تذيب مظاهر الخجل أو التردد في الحديث معها .. وتضفي جواً ودياً مهدئاً يضبط أية انفعالات يمكن أن تخرج صاحبها عن حده، لن تكون اجتماعات جافة بالتأكيد.

وعلى قمة ظهر البيدر عبرت غيوم داكنة مشبعة برذاذ المطر وكأنها ترافقهم باتجاه الشرق، وضبابها يكاد أن يمنع رؤية هامة جبل الشيخ الموشح بالثلوج والساكن على مسافة قريبة بمهابة وجلال كأنه شاهد على الزمن، تذكر صديقته الخليجية ودموعها التي غالبتها وهي تودعه عائدة إلى بلدها منذ شهور قليلة وأحس بانقباض يؤرقه كلما استعاد ذكرياته الجميلة برفقتها الوديعة.. أين هي الآن.! ماذا تفعل.. لقد وصلت رسالة وحيدة تحدثه فيها عن شوقها وحنينها إلى دمشق، لم تطفئه رحلتها الصيفية الطويلة مع الأهل في لندن وباريس وجنيف

www.alkottob.com

،وتمنيها لو كان برفقتهم، ولكن هيهات.. لم تنس ذكر الأماكن التي كانا يرتادانها.. والتي وصفتها بأنها محفورة في ذاكرتها إلى الأبد.. أحس بوحدة قاتلة يا صديقي العزيز.. كل شيء أبتغيه أحصل عليه إلا أن رقيقاً مثلك لا وجود له في محيطي الغارق بالسطحية والابتذال.. أحس بالضجر والكآبة.. ليتني أخرت تخرجي سنة أو اثنتين أشتاق إليك كثيراً.. هذه الكلمات الأخيرة في رسالتها الرقيقة التي يحتفظ بها كحرز في خزانته ..

لم يجد تفسيراً مقنعا لارتباط كثير من زملائه بفتيات أوروبيات.. هل هي الظروف وحدها أم الفارق الثقافي والحضاري أم سهولة الزواج وخلوه من الشروط القاسية التي تفرضها تقاليد وعادات مجتمعنا.. وهل تستطع الفتاة الأجنبية أن تتكيف مع واقعنا المختلف؟ إنه يشك في ذلك.. ورغم أن حميد أكد له العكس، لكن حسب معرفته نادراً، ما يستمر هذا الزواج، إلا إذا اختار صاحبه حياة الاغتراب.. لا يستطيع أن يقنع أن فتاة من بيئة مختلفة كلياً يمكن أن تتعايش مع مناخ اجتماعي محاصر بمورثات وأعراف ليس من السهولة تجاوزها.. إن في ذلك مغامرة غير مضمونة النتائج ..

انحدرت السيارة من ظهر البيدر نحو سهل البقاع وبدت كروم العنب والتفاح والكرز منتشرة كواحات خضراء في حوضه الفسيح، رغم تساقط كثير من أوراقها المصفرة مع رياح الخريف.. تسحره المناظر الطبيعية وتبعث في نفسه نشوة غامضة.. لا يدري لماذا طلب من السائق هكذا دون مقدمات أن يسرع رغم أن المسافة إلى دمشق تعتبر نزهة قصيرة.. ولم تسعفه بديهته بالإجابة على استغراب رفاقه.. لزم الصمت، وإن انتابه الخجل قليلاً.. هم لا يعرفون دواخل نفسه، فالأيام الثلاثة التي قضاها بعيداً عن مدينته حسبها طويلة.. وكأن بالزمن ليس مجرد تتابع أيام وشهور، و إنما الإحساس به، وما يتركه في نفسه من مشاعر وانفعالات.. لشد ما يتوق إلى دمشق.. هناك من ينتظره على أحر من الجمر، إنه لا يحب هذه العبارة المكررّة.. لم يترك واجهة محل في شارع الحمراء في بيروت إلا وتأمله، ليختار أخيراً كنزة صوفية لحبيبته.. ستسعدها حتماً هديته.. لو كان يملك المال الكافي لحمل لها الجواهر الفاخرة، لكنها لا تأبه بالمظاهر.. إنها استثنائية، ربما لا تخلق السماء مثلها كل مائة عام ..

ما سر هذا الخوف الذي يتسلل إلى قلبه كلما توقف عند نقطة حدود عربية، هل هي ترسبات حكايات جدته عن درك السلطان الذين كانوا يعبرون بالقرى، و ينهبون القمح والحلال غير عابئين بعذابات الفلاحين المقهورين، ويجلدون كل من

www.alkottob.com

يحاول أن يعترض طريقهم.. أم الأخبار المرعبة عن أساليب التعذيب التي تعرض لها بعض رفاقه على أيدي أجهزة لا ترحم، أم هو منظر آثار السجائر المطفأة في جسم سامي الذي يقشعر بدنه كلما تذكره..؟

هو لم يسجن ولم يعتقل، ولم يمر بهذه التجربة المرة وبالتالي لا خوف عليه.

شعر بالملل والقرف وقد طال انتظاره مع رفاقه لختم جوازات سفرهم ..

لماذا كل هذا التأخير الذي لا معنى له، ماداموا مغادرين، أليس عجباً وجود هذه الحدود أصلاً، والمسافة بين دمشق وبيروت لا تتعدى ساعة واحدة.. لماذا هذا الفصل القاسي بين شعب واحد.. ليس الاستعمار وحده المسؤول عن ذلك.. هناك من ساعده في تنفيذ مخططاته، شريحة معروفة موجودة في كل زمان ومكان لا هم لها إلا مكاسبها وأطماعها التي لا تقف عند حد.. نظر إلى رفيقه وقال باستهجان :

– أليس من المعيب أن تنتظر أكثر من ساعة، ولم يختم جواز السفر بعد .

– لا، هذا وضع طبيعي فالتدقيق في فيشة كل مسافر تستغرق وقتاً.

– هذا ما يبعث على الغثيان .

– عليك ترويض نفسك على هذه الأمور، إن أبديت احتجاجا لا تلم إلا نفسك، فالعاقبة وخيمة .

– ألا يحق أن اسأل عن سبب التأخير ..؟

– من الأفضل أن تبقى صامتا فالسؤال يعتبرونه احتجاجا وهذا على أقل تقدير أو ربما تحديا لهم و عليك تحمل النتائج

– وما هي النتائج برأيك ..؟

– إن لم يلطمك على وجهك لطمة لن تنساها، فسيؤخر سفرك على هواه وعليك الانتظار مثل الآخرين ..

– ألا تراهم يشربون الشاي و يتضاحكون وكأن وقت الناس عندهم لاشيء..

– أنت مضحك أحيانا، أترى مثل هؤلاء يحسبون للوقت قيمة ؟

توتر و نرفز واغضب لوحدك، ولكن إياك أن تشعرهم بذلك أو تسمعهم صوت لعناتك ..

– معك الحق كله، لست من الغباء أن أفعل ذلك ..

www.alkottob.com

تناهى لسمعه صوت الشرطي وهو ينادي باسمه، فهرع إلى الكوة عبر الزجاج الفاصل، وما أن اقترب منها مجيبا أنه هو، حتى قذف جواز سفره بوجهه، وكأنه خرقة بالية تبعث على القرف، فتلقفه دون تعليق، وتمعن في الختم الدائري بعيون زائغة، وكأن الدنيا كلها تدور به ..

***

www.alkottob.com

كان فرحه عظيماً لحظة شاهد اسمه في قائمة المتخرجين من كلية الآداب بجامعة دمشق، لم يهتم أبدا بمعدله الذي لم يتجاوز الستين بالمائة، وكاد يعدو ركضا إلى حديقة كلية الصيدلة، لينقل الخبر السار إلى حبيبته التي لم يبق على خروجها من قاعة المحاضرات سوى دقائق قليلة ..

لم يستطع الجلوس على أحد المقاعد. تمشى بخطوات سريعة على الممرات الحجرية يغمره شعور بالزهو والانشراح، أضفت عليه الورود الحمراء المتفتحة على شجيرات الورد اليانعة ورائحتها الخلابة مزيدا من السعادة. للنجاح طعم جميل، لحظة رائعة في حياة الإنسان، ليس من السهولة وصف تأثيراتها الوجدانية وتعبيراتها ..

ما أن أقبلت طلتها عليه كاد يطير نحوها. لابتسامتها سحر طاغ ينفذ في حنايا القلب، ودَّ لو يحملها بيديه و يقبلها ويدور بها. لم يستطع أن يضبط أعصابه وهو يخبرها كأنه طفل صغير.. نجحت.. ردت بعفوية وهي تشد على يده مبروك وعلا صوت رفيقاتها، الناجح يرفع يده.. كان رفيقه نزيه قد لحق به وهزه بكتفه ضاحكاً :

_ تركتني في الممر وذهبت مسرعا كيف نسيتني .؟

_ آسف.. تصرفت بعفوية.. لم يكن ببالي سوى أميرة. وعلقت إحدى رفيقاتها :

_ لا تلمه يا نزيه، لقد سرقت عقله كله ..

ضحك الجميع.. وتركت العبارة طيف ابتسامة خجولة على ثغرها، الكل يعرف مدى حبه لها، وقد أضحت علاقتهما معروفة في الوسط الطلابي، ومثار حديث محبب في كثير من الأحيان، ربما كان هناك من يحسده على امتلاكه لقلب هذه الأميرة التي وهبتها الطبيعة جمالا فاتنا، وسحرا غامضا لا يمكن لمن ينظر إليه إلا أن يدهش، وترتفع دقات قلبه وتنتشي أحاسيسه. كان مجرد عبورها باب الجامعة إلى كليتها، يتوقف الحديث بين هذا وذاك من التجمعات الطلابية، وترنو العيون نحوها متأملة طلتها البهية.. تمضي في طريقها دون التفاتة لأحد،

www.alkottob.com

وكأنها تدرك في قرارة نفسها أن العيون تحاصرها أينما تنقلت، كبرياؤها يزيدها جاذبية ويضفي على جمالها هالة أسطورية، من الصعب الاقتراب منها، أو الخلاص من سحرها.

شبك يده في يدها واعتذر من رفيقاتها وكأن لا وقت لديه يضيعه للانفراد بها ..

– نلتقي غدا صباحا، ونشرب القهوة في الكفتيريا. وردت إحداهن مستنكرة بمرح:

– قهوة على الناشف، هكذا تريدنا أن نحتفل بتخرجك..؟

واسقط في يده فقال:

– لا لا حددي المكان وأنا مستعد لما تطلبونه ..

– سنتفق ونخبرك غداً، نحن نأمر وأنت تنفذ ..

ضحك الجميع، وسحب أميرة وسعادة غامرة تملأ قلبه، وعبرا معا باب الجامعة، واتجها الى بردى مروراً بالتكية السلطانية، التي تبدو وكأنها تحرس ضفافه، وبالمتحف الوطني المزنر بأشجار الصفصاف والكينا العالية، التي تكاد تحجب حتى الضوء عن أعين الناظرين. وربما لاعتيادهم سلوك هذا الدرب الجميل، لم تستوقفها ضخامة تمثالي الأسدين الرابضين على مدخله بأنفة وكبرياء، سارا في محاذاة السور وانشغلت عيناها في المياه الجارية، وضوء الشمس المنعكس على صفتحها يبعث في النفس إحساساً بالجمال الهادئ. تأملت بشغف نافورة المياه التي تبعث رذاذها في كل اتجاه.. لم تأبه بضجيج السيارات العابرة من جوارهما، أو أعين المتطفلين العابرين، كانت تدرك بإحساس الفتاة الذكية إن ثمة أمراً يود أن يحدثها عنه.. إن حديثهما عن الجامعة والدروس والأساتذة والأصدقاء والمسرحية التي تقدمها الفرقة القومية، ليست هي ما يشغل باله تماماً.. ضغط على يدها بحنو ..

– غداً مساءً سأزوركم في البيت .

قالت ضاحكة:

– هكذا بكل بساطة، لا أحد يعرفك من أهلي، وأنت تعرف أن والدي لا يتقبل ذلك بسهولة.

www.alkottob.com

أصر مؤكداً على قوله :

– لقد قررت أن أطلبك منه، لا أستطيع تأجيل ذلك وافق أو لم يوافق أنت لي ..

ورفت خصلة شعرها التي عبثت بها رياح خفيفة على عينيها .

– من قال لك أنه يمكنني أن آخذ غيرك، ولكن علي أن أهيئ والدي واخوتي لقبول ذلك، أمي تعرف ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ..

رد متبرماً :

– لا أستطيع الانتظار، أخبريهم أن فلاناً قادم لزيارتنا، لن يرفضوا استقبالي ..

– أعرف ذلك، ولكن عقلية أبي ليست سهلة خاصة وأنت بالنسبة له غريب لا يعرف عنك شيئاً.. الأهم من ذلك أنك تتعاطى في السياسة، وإذا عرف أن راتبك خمسمائة ليرة وتتقدم لخطبة ابنته سيجن، قد يدهشك ذلك، ولكن إذا كان مصروفه اليومي قدر راتبك الشهري فكيف سيتقبل الأمر .؟

– عليه أن يترك الخيار لك ..

– المشكلة التي أواجهها أن هناك أكثر من شاب من أصحاب محلات المجوهرات ويعملون بالصياغة وأطباء يملكون ثروات كبيرة وأبناء تجار كبار اعتذرت منهم جميعاً.. وهو لا يعرف حتى الآن لماذا، غير أنني لا أرغب بالزواج حالياً ..

ثمة إحساس بالزهو غمره وقال:

– سأحاول كسب وده، وإذا تركت لديه انطباعاً إيجابياً ستحل نصف المشكلة، وعلى والدتك أن تحاول إقناعه .

قالت وابتسامة رقيقة ارتسمت على شفتيها الوردتين :

– أنت تعرف أنني لن أتزوج أحداً غيرك، لا بأس سأخبر أمي أنك قادم لزيارتنا غداً وعليها تدبر الموضوع.. وليكن ما يكن ..

قال باعتزاز :

– أنت عظيمة، لا أتخيل نفسي بدونك يا للروعة إنه حلم سيتحقق، بعد غد

www.alkottob.com

سأسافر إلى بيروت، ومنها إلى القاهرة كما أخبرتك.. عشرة أيام أكون بعيداً عنك أشعر أنها دهر بأكمله.. أتدرين؟ لا أحس بشيء حولي إلا أنت ..

قالت ضاحكة :

– أنت رومانسي دائماً لا أعرف كيف تركت الشعر والأدب وانغمست في العمل السياسي، الذي يأخذ وقتك كله ..

نظر في عينيها المتألقتين ..

– ما دامت أجمل القصائد متجسدة فيك، فما يعنيني بعد ذلك شيئاً ..

– ياه.. إن تعبيراتك تأسرني دائماً..و هي التي جذبتني منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه، لا أستطيع أن أتحمل ثغيابك كثيراً أحس بفراغ قاتل.

– لن أتأخر كثيراً.. سأعيش فترة انتظار قاسية و أنا أنتظر جواب والدك.

تحدثا طويلاً عن حفلة الخطوبة، و من يدعون إليها إذا سارت الأمور كما يتمنيان، و لم يتصلب والدها في موقفه الرافض قطعاً في البداية، و عن لون الفستان الذي سترتديه و تسريحة شعرها التي يحبها، و رفيقاتها و رفاقه المقربين..

كان مغتبطاً وسعيداً وهي تلوح له بيدها عبر نافذة الحافلة الذاهبة إلى حي القصاع، حيث بيت أهلها الذي انتقلوا إليه منذ فترة قصيرة، وقد ترك رحيلهم عنده حنيناً لا ينضب وذكريات لا تنسى عن أجواء حيهم الحميمة، ورائحة الياسمين في الصباحات الندية والمساءات الهانئة، كيف لا وهو بيت دمشقي قديم تم فيه أسره. لا يدري مبعث ذلك الشعور بالطمأنينة، الذي يسري في نفسه رغم أنه يعرف تماما أنه لايملك سوى راتبه الشهري وبيتا مازال رسما على الخريطة، في نقابة الصحفيين ووالده لا يستطيع أن يقدم له الكثير، أما عمه الثري الكبير فقد قطع أي اتصال به منذ تمرده على قراره بالدراسة في إحدى الجامعات الغربية.. لا يهم، مادامت تعرف وضعي وتقبل به.. أما والدها الذي سيمانع بداية سيوافق أخيراً.. هو يريد لابنته صائغا يملك الكثير من الذهب في خزائنه أو تاجراً كبيراً، أو طبيباً مشهوراً، أو مقاولاً أو صاحب شركة كبيرة. على أن يكون نبيل النفس كريم اليد ويتصف بأخلاق حميدة. وربما أهم ما سيقلقه ليس الوضع المادي فحسب بل شخص يتعاطى بالسياسة، وهو يعتقد أن السياسة هم وغم ومضيعة للوقت، وكلعبة القمار، الخسارة أو الربح فعلان مذمومان ومكروهان.. كيف يمكن أن يكسب ودَّه ؟

www.alkottob.com

ليترك الأمر للظروف، لن يصعب عليه إيجاد الحلول عند كل عقدة تواجهه ..

أحسَّ أن الكلمات تخونه، وهو يحاول أن يكتب رسالة لوالده، يخبره فيها بتخرجه من الجامعة، وعزمه على الالتحاق بالدراسات العليا، وهو يعلم تماما أن أهله ينتظرون عودته بلهفة وشوق، ولا يمكن قبول أي مبرر يتذرع به .. والعودة غير واردة في حساباته في ظل ظروف الأحكام العرفية القاسية، ومعظم الأسئلة التي توجه لزملائه العائدين تكاد تنحصر بنشاطاته السياسية والنقابية ودوره في التنظيم الطلابي والحزبي، رغم أنه كان ملاذا لكثير من أبناء المحرومين من فرص متابعة تحصيلهم العالي في بلدهم .

لم يقصر يوما في تقديم مساعدة، أو تلبية حاجة وكان موضع احترام أينما ذكر اسمه، وربما ذاك كان سببا في مضاعفة لؤم الأجهزة المعنية ضده .

ماذا يكتب لأبيه ولأمه؟ لا عذر لديه.. فقد مرت سنوات ثلاث دون أن تتاح له الظروف بالعودة الى بلده وكيف الآن وهو في موقع قيادي. أن الأمر محسوم بالنسبة إليه، سيغضب والده كثيرا وستبكي أمه وستعتب أخواته، ولكن فرحهم بحصوله على الشهادة الجامعية و استكمال دراسته العليا سينسيهم ذلك .

لا ضرورة لكتابة رسالة، غدا يذهب الى بيت أحد أصدقائه ويتحدث معهم بالهاتف ويخبرهم بكل ما لديه.. وضع القلم جانبا، وأغلق دفتر الرسائل، ونهض متثائبا متعبا واستغنى عن صنع فنجان شاي أو قهوة، واكتفى بقضم قطعة من الشوكولا قدمتها إليه أميرة، و قبل أن يستلقي على سريره سمع قرع جرس الباب الخارجي رغم أنها ساعة متأخرة من الليل وقد أصبحت عادة غير مستغربة بالنسبة إليه فالوقت غير محدد بالنسبة له ولرفاقه وخاصة صديقه نزيه.

فتح الباب بهدوء مُرحبا بصديقه نزيه .

نزيه الشاب الذي التحق بكلية الهندسة المدنية بجامعة دمشق بمنحة حزبية، وتخرج منها بتفوق وجد من واجبه أن يخدم في مؤسسة حكومية سنة أو سنتين، وبمبادرة شخصية عمل في قسم الإنشاءات في محافظة دمشق، وعين مسؤول على قطاع الأبنية والجسور والطرق، بعد أن توسم فيه محافظ المدينة الحرص والإخلاص لعمله الفني، كسب ثقة مرؤوسيه خلال فترة قصيرة من عمله ..

– أهلا ، أهلا ، لابد أن لديك شيئا نأكله ..

www.alkottob.com

رد عليه عابساً على غير عادته .

– أي أكل، أي بطيخ.. أنت وين وأنا وين ..

سأله ضاحكا:

– خير إن شاء الله خير.. !

قال نزيه والغضب واضح على قسماته :

– أتعرف ماذا جرى معي الليلة ..؟

– لابد أنه شئ مهم هل أغضبت تريز .؟ هل توترت العلاقات بينكما .؟

– لا هذا ولا ذاك كيف تفكر أن أسمح لنفسي بإزعاجها، المسألة مختلفة تماما، أكاد أن أ تفجر غيظا ..

اعتدل عاصم في جلسته المتراخية وصاح به :

– إذن ماذا جرى، أخبرني لقد حيرتني ..؟

– لقد زارني متعهد البناء مساء اليوم ..

قال مستخفا بالموضوع ..

– وماذا في ذلك.. شيء طبيعي أن يزورك معارفك، فأنت اليوم تعمل إلى جانب كبار المهندسين في المحافظة، ولك كلمة مسموعة، ورأي غالبا ما يؤخذ به، كما أعرف، ما المفارقة بهذه الزيارة ؟

قال نزيه وهو يرتجف :

– لو كانت مجرد زيارة عابرة لا بأس ، ولكنك قد لا تصدق هدف ذلك الحقير..؟

– ماذا .. ؟

– لقد سبقه أحد عماله حاملا تلفزيونا ملونا وضعه على الطاولة وقال : انه هدية من أبو كمال وعندما صرخت في وجهه طالبا منه العودة من حيث أتى، استعطفني بأن معلمه سيغضب منه ..

– و بعد ..؟

– أجبرته على حمله، و الخروج بسرعة من البيت

www.alkottob.com

قال عاصم متخابثا :

– يا رجل تلفزيون ملون، لابد أن المتعهد يحبك كثيرا ..

– لا تسخر يا عاصم الموضوع لم يتوقف عند ذلك ..

كيف ..؟

أجاب وهو ينفث دخان سيجارة أشعلها بعصبية ظاهرة وهو غير مدخن :

– لم تمض عدة دقائق حتى جاء المتعهد نفسه هاشاً باشاً، وكاد يضمني وهو يسلم علي، وجلس دون أن أطلب منه ذلك، وكأن شيئا لم يكن ..

– إيه.. وبعد !

تحدث عن سمعتي الحسنة وأخلاقي الحميدة، و أنه

و زملاءه استبشروا خيرا بمتابعتي لأعمال الإنشاءات، وحرصي على تسريع العمل و تفهمي للعقبات التي تواجه أعمال التنفيذ ومستلزمات البناء..

وقاطعه عاصم:

– هذا شئ جيد ما الذي عكر مزاجك ..؟

أجابه نزيه بحدة :

– لا تقاطعني لم اكمل حديثي بعد.. تسألني ما الذي عكر مزاجي، لو كنت مكاني لحملته وألقيته من النافذة، بعد هذه المقدمة التي بدأ بها حديثه قال : أنه سمع بأنني مقدم على الزواج، وقد بعث لي هدية معتقدا مني قبولها بترحاب ..

– إذن هديته أكبر من ذلك ..

– قد لا تصدق، فقد أخرج من جيبه مغلفا ووضعه على الطاولة أمامي، وعندما سألته عن فحواه أجابني بأنه مبلغ يوفر لي شراء شقة في أحد أحياء دمشق الجديدة، راجيا قبوله كهدية لزواجي المزعوم ..

قال عاصم باندهاش :

– شقة في دمشق الجديدة..؟ إنها رشوة كبيرة ما يريد ثمناً لذلك .؟

– لقد أوقفت العمل في أحد مشاريعه الكبيرة، فالمواد المستخدمة غير مطابقة للمواصفات، تصور أنه يضع نصف كمية الحديد المطلوب في تسليح البناء،

www.alkottob.com

ويريدني أن أغض النظر.. إنها جريمة أخلاقية وإنسانية، لا أستطيع أن أتصور رجالا على هذه الشاكلة بلا حس ولا ضمير إلى هذا الحد ..

– و ماذا فعلت معه ..؟

– لقد ذهلت حقا وكدت من فورة غضبي أن اقذفه بصحن السجائر أمامي، لا أعرف كيف طردته من البيت ..

– وماذا كان رد فعله ..؟

لقد هدد وتوعد وقال أني حنبلي.. وأن هناك من هو أكبر مني، و لا حاجة لموافقتي مدعياً بأنه أكثر خبرة مني بما يصلح ولا يصلح بالبناء، أرأيت كم هو حقير ونذل.. ؟

قال عاصم مخففا عنه :

– اعتبر الأمر حادثة عابرة، عملك يتطلب الحذر وهذا الجبان سينفذ ما تقرره ..

قال نزيه و قد خف غضبه :

– أتعرف، بدأت أشك بالمهندس نبيل، تعرف أنه صديقي منذ أيام الجامعة، لم يمض على وجوده بالمحافظة أكثر من عامين، أصبح لديه بيت وسيارة شخصية، وألاحظ أنه يصرف بلا حساب، وعندما كنت أسأله مازحا من أين لك هذا؟ كان يجبني بأن ذلك كله من والده ، فراتبه لا يغطي سوى مصروفه الشخصي خارج البيت ..

– وهل صدقت مزاعمه ..؟

– لا أدري بعد حادثة اليوم تضاعف شكي بنزاهته..

و تكاد لا تخلو جلسة حوار من تأكيده على المبادئ والقيم التي ينبغي الالتزام بها، وتعميقها في حياة الناس ..

– لا عليك هذه المظاهر الخادعة والتشدق الكلامي، لا تنطلي عليك، المهم أن شخصا مثلك لا يمكن أن يضعف أمام أي اغراءات كانت، أعرف ذلك وتصرفك مع هذا المتعهد الحقير كان رائعا ..

– سأبقى عندك الليلة، ربما لو عدت إلى بيتي لا أستطيع أن أنام حتى

www.alkottob.com

الصباح ..

قال عاصم مبتسما :

– اخلع ملابسك وارتح ..

تقلب على الفراش كثيرا، أخذته الأفكار قريبا وبعيدا، لم يزر النوم عينيه سريعا كعادته، يعرف أن نزيه يقدس المبادئ والمثل النبيلة لا يمكن أن يضعف أمام اغراءات تشتري ضعاف النفوس وفاقدي الضمائر، ولو على حساب حياة الآخرين الأبرياء، لكن مقاولا حقيرا كهذا يسعى لكسب مزيد من المال السريع و الحرام، لن يعدم الوسيلة القذرة في سبيل تشويه سمعة صديقه، و نسج الأكاذيب حوله، وهو قادر على توظيف أصحاب المهمات القذرة للنيل منه.. لكن لاشك أن هناك صراعا دائما بين الخير والشر ومهما كانت قدرة الأشرار على الحركة والتأثير، فأن عدالة الحياة تنتصر للحق أخيراً ..

وحاول أن يقيم تشابه بينه وبين نسيم، ماذا سيكون موقفه لو كان مكان نزيه ؟ أعتقد أنه شخص مختلف، له طموحاته الخاصة ولاتهمه الطرق التي يسلكها في سبيل الوصول إليها، ألم يغازل جارته العجوز والتي تكبره بأكثر من ثلاثين عاما ملفقا لها الكلمات العاطفية الكاذبة، لعلها تعشقه وتعفيه من أجرة الغرفة التي يسكنها.. و قد وصلت وقاحته إلى حد أن قال لها يوما، عبارة لا يدري أين قرأها وحفظها

(عندما تطفأ الشموع تتساوى النساء).

وكيف غضب منه عندما أدان تصرفاته، ووصفه بقليل الأصل وإنسان يعيش بلا مبادئ، رغم ما يتشدق به أمام الآخرين، ودفاعه عن القيم النبيلة التي ينبغي أن نتمثلها في حياتنا ..

لا يدري كيف يمكن أن يكون طبيبا يتعامل مع آلام الناس ويعالجهم.. ما يعرفه أنه يعمل الآن في العيادة العمالية في مدينة اربد ولم يتزوج بعد، ويسعى للذهاب إلى أمريكا لإكمال اختصاصه ..

سحب اللحاف على رأسه وتكور على نفسه، لعله يغفو، حاول أن يركز تفكيره في موضوع واحد، لم يستطع ذلك..

غداً عليه أن يذهب باكرا إلى بيروت وسيغادرها إلى القاهرة ..

www.alkottob.com

إن أمامه أسبوعا حافلا بالعمل، بدا في مخيلته طيف فتاته الجميلة، واستقرت صورتها في أعماق قلبه، وأحس بخدر لذيذ تلاشى بعدها كل اثر لما يقلقه أو يعكر صفو نومه الهني ..

***

www.alkottob.com

أخذ مكانه على طاولة الاجتماعات، وفي مواجهته جلست سلوى كانت ترفع بين فترة وأخرى خصلة شعر كستنائية ناعمة عن عينيها تأبى أن تستقر في مكانها، فتبدو عيناها الزرقاوان فاتنتين، تخفيان غموضا محببا لفتاة جامعية مع قلة نادرة من زميلاتها، لاشك أن وجودها يضفي جواً جميلا على الجلسة، وكلما مل حديث أحد زملائه في الهيئة التنفيذية تلهى بمحاولة رسم عينيها أو شعرها أو شفتيها على الورقة أمامه، رغم خبرته المعدومة بأمور الرسم والتصوير.

لكن النقاش المطول حول قضايا سياسية ونقابية، وإصرار كل عضو على طرح مقولاته والاستطراد في الدفاع عن الموقف الذي يراه تنظيمه السياسي، كانت تعطي انطباعا أن كل جهة تحاول الاستفراد بالقرار، رغم استحالة ذلك نظراً للحالة الائتلافية التي جمعتهم معا وحافظت على وحدة المؤسسة الطلابية.. ربما كان ذكاء منه، يترك الجميع يتحدثون ومن ثم يبدأ رده بعبارات مختصرة يرفقها بتقديم اقتراح مكتوب، غالبا ما كان يؤخذ به أن لم يكن دائما.

كان صالح أكثرهم صخبا ومدعاة للاستفزاز، يعتقد أنه يملك الحقيقة وحده، وعندما يواجه بردود مفحمة على مغالاته في استخدام الكلمات النارية والعبارات الثورية، وتنظيراته حول ضرورة حرق المراحل، يركن للصمت، ويترك لزميله يوسف فرصة لإعانته في تخفيف حدة الكلمات والمواقف التي تقود في حالة التمسك بها إلى تفجير الائتلاف القائم وتحميل الطرف المتسبب مسؤولية ذلك.. وعلى غير العادة اليوم. لم تتحدث سلوى، ولم تعلق على مداخلات زملائها كان ثمة حزن مرتسم في عينيها رغم محاولتها إخفاء ذلك من خلال تصنعها الإصغاء للآخرين، والعبث بأوراق وردة بين يديها، الإشاعات تطالها في الوسط الجامعي، وحتى بين زملائها المقربين، يقال.. أن زعيماً فلسطينياً يهيم بها، وينوي الزواج منها، والبعض يدعي أنها تحب شاباً آخر. هو لا يعرف حقيقة ذلك وهي لا تفصح أو تلمح عن عواطفها الحقيقية. تبدو مهمومة وشاردة، ليس من اللباقة أن يسألها سبب ذلك ربما يجرح كبرياءها.. وهي لا تسمح بذلك أصلاً ..

لم يكن يصغي لحديث زميله ميشيل حول الديمقراطية، وضرورة ممارستها في المؤسسات الشعبية، كان يفكر بشيء آخر بعد أن مضى على اجتماعهم أكثر من ساعتين وساد جو ممل ومضجر دفع البعض إلى التثاؤب وأخذ يبحث عن

www.alkottob.com

كلمات موزونة لعله يوفق في صياغة بيت من الشعر أو النثر، يدفع به أمام زميلته السارحة، يعيدها من شرودها ويبعث شيئاً من السرور في قلبها، وخربش كثيراً على الورقة أمامه، حتى وجد ما ضحك له في قرارة نفسه، وكتب بخط واضح وكبير.. طوقيني، أعصريني، قطريني، فعلى ثغرك نضجت حبة تين.. ولم يكد يكمل ذلك حتى ضج مازن بالضحك بعد أن قرأ ما كتب دون انتباه منه، وحمل الورقة ووضعها أمام سلوى التي ما لبثت أن افتر ثغرها عن ابتسامة عريضة اتبعتها بضحكة عالية، والآخرون ينظرون باندهاش بعد أن انقطع النقاش، ولم تترك مجالاً للتساؤل فقرأت العبارة المكتوبة بصوت عال، غير الوجوه المتجهمة فوراً وأخذت التعليقات المازحة تنهال على سلوى التي تقبلتها بترحاب وارتياح ..

في نهاية الاجتماع شدد فواز على دعوتهم للغذاء في شقته القريبة، كان مبادراً دائماً في إكرام زملائه القادمين من خارج بيروت، عادة متأصلة فيه ورثها عن والده شيخ العشيرة الكبيرة المعروفة، الذي حافظ على تراث الأجداد وأعرافهم، وحرص على تمثل أبناءه بقيم النخوة، والشهامة والكرم، رغم ظروف الحياة المختلفة وتطور العلاقات الاجتماعية. حتى إن فواز نفسه كان يمتعض من مناداته باسمه دون أن تسبقه صفة الشيخ الذي يعتقد أنها مسألة لا تقبل النقاش وحق مكتسب لا يجوز التفريط بها أو التنازل عنها رغم السنوات الطويلة التي عاشها طالباً في جامعة بيروت العربية، وفي مدينة صاخبة كبيروت، تصهر في داخلها كل ما هو قديم، ومتوارث، وتحوله إلى أنماط جديدة من السلوك وطرق الحياة.. ومسألة الاعتذار عن دعوته غير واردة خاصة وأن إقلاع طائرته المغادرة إلى القاهرة في ساعة متأخرة من الليل..

رتب أوراقه في حافظته الصغيرة، و تبادل أطراف حديث ضاحك مع زملائه، ولكن فضوله دفعه وهم يغادرون قاعة الاجتماعات لدعوة سلوى على فنجان قهوة في الكفتيريا القريبة، وقضاء بعض الوقت قبل الذهاب لدعوة الغذاء.. بادرها متسائلاً ودون مقدمات والنادل لم يقدم فنجان القهوة بعد :

– أراك حزينة اليوم على غير عادتك، رغم محاولتك إخفاء ذلك، خير إنشاء الله..؟

أزاحت حقيبتها من أمامها، واتكأت بمرفقها على الطاولة وقالت وكأنها وجدت مجالاً للبوح بما في نفسها ..

www.alkottob.com

– أراك شديد الفراسة يا عاصم حقاً إنني مكتئبة ولكن الجو الذي ساد اجتماعنا أخيراً أراح أعصابي بعض الشيء ..

– لابد أن هناك شيئاً يضايقك، لا أحب أن أكون فضولياً، ولكن يمكن أن نناقش الأمر، إن كان خارج الحدود الشخصية..

– لا، المسألة ليست شخصية ولكنها تتعلق بصديقتي نهاد ..

– وماذا عنها ..؟

– تعرف أنها تخرجت صيف هذا العام من الجامعة، وشعرت بفراغ كبير بعد عودتها إلى الأردن، لم يمض على ذهابها سوى شهرين.. وصلتني رسالة منها صباح اليوم عكرت مزاجي كله .

– "خير إنشاء الله ما في شيء ".. مجرد حديث عن الذكريات ؟

– الذكريات تبعث دفئاً في النفس ليس هذا هو المهم، تصور يا سيدي كم تتعذب نهاد، والدها يريد أن يفرض عليها الزواج من ابن عمها، وهي تحب شابا آخر المشكلة الأكثر غرابة أن ابن عمها الحاصل على الدكتوراة يعرف أنها لا ترغب به، ولكنه يصر على الزواج منها ..

– لكن والدها نال قسطا من التعليم أيضا، كيف يلزمها بذلك ..؟

– إنها تعيش صراعا قاسيا وتقول لي أنها تتعذب و لا تجد حلا لمشكلتها.. حاولت أن تقنعه بأنها لا تريد الزواج الآن، وأن عملها في التعليم أهم لديها من أي شئ آخر، تصف لي كيف صاح بوجهها وكاد أن يصفعها رغم أنها المدللة لديه، لولا أمها التي تعرف حقيقة مشاعرها والتزامها الصمت لكان له معها شأن آخر ..

قال مستنكرا :

– هل مازالت عقلية العشيرة تتحكم بحياتنا.

– هذا هو الواقع،لا تغرك المظاهر الزائفة والتطور الواسع في مناحي الحياة المختلفة، فعقلية العشيرة كما سميتها ترسخت أكثر مما كانت عليه ..

قدم لها علبة سجائره فتناولت واحدة منها وأشعلها وهو يتساءل :

ألا ترين ذلك غريبا ومتناقضا ..؟

أجابت مشددة على كلماتها ..

www.alkottob.com

– لا لـيس كـذلك، التعلـيم وحـده لا يكفـي، ينقصـنا الثقافـة والـوعي، حتـى التنظيمـات السياسـية والنقابيـة المؤهلـة لعمليـة التغييـر الاجتمـاعي، مازالـت عـاجزة وأسيرة للواقع القائم ..

– ربما ولكني لا أجد تفسيراً لاستمرار هذه التقاليد البالية ..

نفثت دخان سيجارتها فتشكلت دوائر بيضاء سرعان ما تلاشت في المكان..

– كنت اعتقد أن جيلنا قادر على فعل الكثير، لقد تغير ظاهرنا أما أعماقنا فمازالت مشحونة بوصايا الآباء والأجداد التي أفرزتها مراحل الجهل والتخلف في حياة شعبنا عبر مئات السنين ..

ألا تبالغين يا سلوى ..؟

– لـم أكمـل حـديثي بعد، تطلـب منـي أن أجيبهـا إذا كـان يمكننـي أن أوفـر الحماية لها إذا خطفت من تحب وجاءت إلى بيروت، وهذه مغامرة خطرة، قد أوفر عمـلا لهمـا سـنة أو سـنتين وبعد، سـتبقى مطـاردة مـن فرسـان العشـيرة ومـن يفـرغ الرصاص في رأسها يعتبر بطلا في نظر العشيرة .

قال مستنكرا وبلهجة غاضبة :

– هذا جنون، كنت أعتقد أننا تجاوزنا هذه التقاليد ..

– أنـت يـا صـديقي، حتـى أنـت لا تسـتطيع أن تتخلص مـن أسـرها، تصـور، كثيرون ينظرون إلي بأني متمردة وخارجة على التقاليد المصونة، كما يفهمونها، لو لم يكن أبي شخصا واعيا ومختلفا، منحني ثقته الكاملة لكنت الآن مجرد فتاة تعيش على هامش الحياة، أن وجدت عملا ينقذني من الفراغ القاتل أو أجلس أحيك الصوف، قرب النافذة ساعات طويلة أراقب العابرين.. لقد أبكتني رسالتها وهي تحسدني على حريتي وتطلب مني أن أنقذها من واقعها الأليم ..

– لا تستطيعي أن تقدمي لها شيئا ..

– أعرف.. ولكن علي أن أنصحها بالمقاومة قدر المستطاع، فإن لم يجد ذلك، فلا خيار أمامها إلا الاستسلام، أما المغامرة بحياتها فهذا أمر مرفوض عليها أن تتحمل قدرها كما يقولون :

قال مؤكداً :

– هذا هو الصواب.. ستقدر نصيحتك، لقد كنتما كأختين لم أكن أراها إلا معك أيام الجامعة ..

www.alkottob.com

انبعث من الاسطوانة أغنية عاطفية دافئة فتوقف ضجيج الأصوات العالية و رانت لحظة صمت ..

(امتى الزمان يرجع يا جميل)

ابتسمت سلوى وقالت :

– أترى.. غداً ستكون على شاطئ النيل، القاهرة مدينة رائعة والنيل جنتها، لولاه لكانت مجرد بيوت متناثرة في صحراء ..

– إنها المرة الأولى التي أزورها ..

– ستعشق هذه المدينة، وتتمنى أن تعود إليها دائماً ..

– أنتظر بلهفة موعد الطائرة ..

وسرى اللحن الجميل و الصوت الرخيم في كيان العاشقين و المحبين والأصدقاء ..

قالت سلوى :

– إن الأغاني القديمة تعيش معنا في ذاكرتنا، وقلوبنا تبعث نشوة سحرية في نفوسنا ..

قال مؤيداً :

– الفن الحقيقي لا يزول، رغم كثرة ما نسمعه اليوم من أغانٍ هابطة تملأ السوق، ولكن سرعان ما تتلاشى مع أصحابها ..

– تصور لا أستطيع أن أبدأ يومي دون أن أسمع أغنية لفيروز مع فنجان القهوة الصباحي.. تحس أن أغانيها شيء من صنع السماء ..

علق مبتسماً :

– أنت رومانسية يا سلوى ربما تكونين شاعرة ونحن لا ندري ..!

التفتت إلى لوحة جميلة معلقة على الجدار المقابل ..

– شاعرة ؟ حلم جميل أن أكون كذلك ، أحب قراءة الشعر قبل أن أنام، أترى هذه اللوحة، إنها قصيدة مرسومة بالألوان، منظر الغابة والبحر وزوارق الصيادين الصغيرة عند الغروب إنها الجمال ذاته ..

ومن شاعرك المفضل ..؟

www.alkottob.com

– القصيدة الجميلة تأسرني لأيٍ كان.. معظم ما أقرأه بالإنجليزية.أحتفظ بكتب شلي، و بايرون.. يعجبني السياب من المحدثين وأمرؤ القيس من الأقدمين ..

سحبت محفظتها بهدوء ونهضت قائلة :

– لقد أخذنا الحديث، فواز ينتظرنا على الغداء، لا أتحمل عتابه إن تأخرنا..

قال وهو ينهض عن كرسيه دون رغبة منه :

– فكرتي عنك اختلفت، كنت أعتقد أنك مهتمة بقراءة الكتب الفكرية والسياسية فقط.. كم يسرني صداقة فتاة مثلك ..

وخرجا من الكفتيريا ..

كان الشارع شبه خالٍ، بعض الطلبة الذاهبين إلى جامعتهم القريبة، وشاحنة عسكرية مكتظة برجال المقاومة تعبر مسرعة، ومخلفات المارة المتروكة على الأرصفة دون تنظيف بعثت في نفسه شيئاً من الكآبة خفف من وطأتها وجود سلوى إلى جانبه، ونسمة خريفية منعشة قادمة من البحر ..

***

www.alkottob.com

لم يتوقف عامل فندق البرج المطل على النيل، من الترحيب به وهو يحمل حقيبته..أهلاً يا بيه، تفضل يا بيه، الغرفة جميلة ومريحة، ومن الشرفة ترى نيلنا الجميل.. وهو يرد عليه.. شكراً، شكراً.. كان متعباً، ولكن لم يكن لديه الرغبة بالاستلقاء على السرير في غرفته الأنيقة، ولم يخلع ملابسه بعد الرحلة الطويلة، خرج إلى الشرفة الصغيرة فلفحته نسمة باردة منعشة، وتراءت له أضواء المدينة الساحرة،وانعكاساتها على مياه النيل الجارية، بصمت أبدي.

كان اندهاشه كبيراً، وكأنه طفل صغير يرى البحر لأول مرة .

أخذ نفساً عميقاً، وشعر بانشراح طاغٍ، وسعادة غامرة أنسته تعب السفر.. أعجبه دماثة عامل الفندق ولطفه و قوله سترى نيلنا الجميل.. من حقه أن يقول ذلك فكل مواطن يعيش على الأرض المصرية يعتبر النيل ملكه، خاصته، ربما من بداية التاريخ وحتى نهايته، إن كان هناك نهاية، إنه رمز خالد بالنسبة لهم من حقهم أن يفتخروا بذلك .

لم يمل النظر والاندهاش وهو يملأ عينيه بسحر النهر العظيم .. ولم يعبأ بمرور الوقت وقد قاربت الساعة العاشرة ليلاً ولم يتصل بزملائه بعد يعلمهم بقدومه، فهو يعرف أن الطلبة نادراً ما ينامون باكراً،سيتصل بهم في الحادية عشرة.. فزحمة الطرق تخف قليلاً رغم معرفته بأنهم يسكنون بعيداً عن وسط المدينة.. أدار قرص الهاتف وطلب فنجاناً من القهوة، لا أجمل من أن تحتسي القهوة على شرفة تطل على النيل العظيم.. غداً سيكون يوماً متعباً، عليه أن يهيئ نفسه، ويعد كلمة مكتوبة، ولكن لا ضرورة لذلك فهو قادر على الارتجال والإقناع، و لن يفوته شئ، وهذا برأيه اكثر تأثيرا في الآخرين.. عليه أن ينتزع اعترافا بمنظمته الطلابية كممثل شرعي لشباب الأردن من مندوبي اكثر من خمس عشرة منظمة شبابية عربية.

احتسى فنجان القهوة بتلذذ، تمنى لو كانت أميرة برفقته..

وجودها يبعث سحراً خاصاً في نفسه، يشعر أن جسده هنا أما قلبه فهناك، ربما تكون جالسة إلى منضدتها الآن، أو هي نائمة يرفرف على عينيها الملاك الحارس.. لعلها تحلم به الآن كما يحلم بها.. غداً سيشتري بطاقة بريدية يعبر بها عن شوقه إليها، ليس من العدالة أن يزور القاهرة وحيداً لا بد أن تكون معه في

www.alkottob.com

المرة القادمة ..

إحساسه الداخلي يشعره بموافقة والدها عليه، لم يعلم أهله بعد، و لكن أمه ستزغرد فرحاً و بهجة، حتى لو لم تكن ابنة خالته التي طالما كانت تردد اسمها و تعده بها.. قد ينغص عليها ذلك بعض الشيء، و لكنها تعرف أن ابنها أصبح شاباً لامعاً، كثيراً ما تتباهى به بين جاراتها، و قريباتها، ولن يختار إلا أصيلة و فاتنة تكون محط إعجاب الجميع ..

أدار قرص الهاتف و اتصل بزميله مروان يخبره بوصوله، فعاتبه على عدم اتصاله به لحظة وصوله إلى المطار و الحجز في الفندق، و أكد عليه أن يحزم أمتعته فهو قادم ليأخذه إلى البيت، و لا يقبل أن يستضيفه أحد غيره ..

لم يكن بحاجة إلى توضيب شيء فملابسه لم يستبدلها بعد، فاستغراقه في المنظر البانورامي من على شرفة الفندق، أنسته أن يستحم من عناء السفر أو حتى أن يغسل وجهه ..

أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها و خلع ثيابه بسرعة، ودخل إلى الحمام و اغتسل بالماء البارد، شعر بالحيوية والنشاط و هو يرتدي ملابسه، لم يكن راغباً في قرارة نفسه أن يترك الفندق هذه الليلة، إلا أن إلحاح مروان عليه من غير المستحب رفضه ..

نصف ساعة بالضبط هي المسافة التي قدرها مروان للوصول إليه من بيته، دخل ضاحكاً مرحباً ب عاصم و قال وهو يعانقه بحرارة..

– أيعقل أن تحجز بالفندق و نحن هنا ؟

– لا أحب إزعاجكم و خاصة و قد وصلت في ساعة متقدمة من الليل ..

– و هل تعتقد أني أنام قبل الثانية أو الثالثة صباحاً؟ الليل و النهار في القاهرة سيان، لن نضيع الوقت سنكمل السهرة عندي، الشباب ينتظروننا ..

– لنشرب فنجان قهوة على الأقل ..

قال حازما:

– لا، لا، نشربه مع الشباب في البيت ..

لا مناص من الموافقة، حمل مروان حقيبته و تبعه عاصم إلى الخارج، بعد أن سدد حساب الفندق الذي لم يتجاوز عشرة جنيهات مصرية ..

دهش عاصم و هو يصعد إلى جانب مروان في سيارة المرسيدس الرمادية،

www.alkottob.com

و لم يخطر بباله أن طالباً أردنياً يدرس في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، يملك سيارة من هذا النوع، ربما أنه استعارها من صديق له.. ثمنها غال، و هو لا يعتقد أن دراسته تستدعي هذا الترف .

و كان مروان يحدثه عن أسماء الشوارع و الأماكن والساحات التي تعبرها السيارة مسرعة، باتجاه حي الدقي.. كل شيء يراه يبعث على المتعة و الحبور والأجمل أن يتحول المتخيل إلى الواقع هكذا هي القاهرة كما تصورها،

قال منشرحاً:

– مدينة رائعة، إنها أروع مما كنت أتصور ..

أجابه مروان دون أن يزيح عينيه عن الطريق التي تعبرها السيارات المسرعة:

– لم تر شيئاً بعد لدينا الوقت لتشاهد عظمة هذه المدينة العريقة، السيارة موجودة، و لا نحتاج لزحمة المواصلات ..

سأل بتردد:

– هل هي سيارتك يا مروان..؟

– طبعاً، و هل تظن أنني استأجرتها .؟

– لا، اعتقدت أنها لصديق ..

– يا سيدي لا تستغرب، يحق لي كطالب عربي أن أحوز سيارة دون أن أدفع جمركها، ولهذا نحن محظوظون هنا ..

– إنها رائعة، نادراً ما رأيت مثلها في السيارات العابرة

– اشتريتها منذ خمس سنوات، وهي لا تكلفني كثيراً عندما تفضى جيبتي، لا يقصر الأصحاب ..

– هذا شيء جميل فأنت تعيش حياة مرفهة ..

قال مروان و هو ينعطف في الشارع الموصل لبيته:

– قد تستغرب، أنا أسكن في فيلا لوحدي، تخرج صديقي منذ خمس سنوات وبقيت فيها، أجرتها لا تزيد عن عشرين جنيها في الشهر، وعندي شغالة لا تكلفني نصف هذا المبلغ، الحياة رخيصة هنا، وأحيانا لا أفكر بالتخرج من الجامعة ..

www.alkottob.com

–ياه.. أنت محظوظ، فيلا و سيارة.. بقي العروسة ..

أجاب مروان ضاحكاً وهو يركن السيارة في الكاراج المخصص لها:

– لا أفكر بهذا الموضوع، والأهل يرفضون الفكرة أساساً، قبل أن أحصل على الشهادة الجامعية، اختلق لهم الأعذار الوهمية أحياناً لأبرر أسباب تأخري في الدراسة ..

قال عاصم ضاحكاً:

لا مشكلة.. أخيراً ستحصل على الشهادة ..

على باب الفيلا كانت مجموعة من الشباب تنتظر مرحبة به، عانق الجميع بحرارة بعد أن عرفه مروان بأسمائهم، ساد جو من المزاح في الصالة الواسعة و تشعب الحديث في أمور مختلفة .

***

www.alkottob.com

نهض باكراً كانت أشعة الشمس المتسللة عبر الستائر المفتوحة تعطي انطباعاً بجوٍ حار هذا اليوم، و قد غطت مساحة واسعة من غرفة نومه، و ظن أن الوقت فاته على موعده، نظر إلى ساعته، و لم تكن تتجاوز الثامنة، فاطمأن.. أخذ حماماً دافئاً، و لبس بدلته الأنيقة، و نزل إلى الصالة، ألقى تحية الصباح على مروان الذي كان ينتظره، وهو بكامل أناقته..

_ أتعرف يا عاصم للمرة الأولى منذ شهور طويلة أنهض مبكراً في مثل هذا الوقت، القهوة جاهزة، لنشربها في المكتب.

– تركت الستائر مفتوحة حتى لا يأخذني النوم.. وها أنت سبقتني ..

– صحوت على جرس الهاتف طلبت من بسيم أن يصحيني..

قال عاصم و هو يتبعه إلى غرفة المكتب:

_ لا خوف إذن أن يفوتنا موعد، أنت تحتاط جيداً للأمور..

– الاجتماع مهم كما قلت، و أي تأخر لن يكون في صالحنا..

– بالطبع سنكون أول الحاضرين .

ارتاح عاصم لحماسته و اندفاعه العفوي لمرافقته، و لم يتردد بالموافقة عل اصطحاب بسيم معهما، الاثنان يتمتعان بقوام ممشوق، و مظهر لائق لافت للنظر، وكثيراً ما قد يكون للمظاهر تأثير إيجابي غير مباشر على الآخرين ..

– لا بأس، اقتراح ممتاز، سنأخذ بسيم معنا..

هكذا أجابه و هو ينظر في انحاء غرفة المكتب.. اللوحات الجدارية الجميلة ..والمكتبة التي تغطي الجدار كله ..

والطاولة الأنيقة التي تحمل المجلدات الفاخرة و المرتبة بعناية يوحي لمن ينظر إليها بأنها لم تفتح أبداً، والمقاعد المخملية المريحة لا تمل من الجلوس عليها، تناول كتاباً،

وأخذ يقلب صفحاته الناصعة البياض ..

– مكتبك يشجع على المطالعة و الكتابة، إنه مدهش..

www.alkottob.com

رد مروان ضاحكاً:

– الحقيقة لا أجلس فيه كثيراً، غالباً ما أخرج صباحاً وأعود في أواخر الليل، و نادراً ما أختلي وحدي بالبيت.. أصبح بيتي مضافة بعد رئاستي لاتحاد الطلبة ..

– أعرف أن لديك شعبية واسعة في أوساط الطلبة، هذا شيء رائع، و لكن هذا لا يمنع من تخصيص وقت للدراسة ..

– لست مستعجلا.. أخيراً سأحصل على الشهادة.. أنت تعرف مشاكل الطلاب، إن لم تكن واعياً ضيعوك ..

ضحك عاصم من أعماقه، فقد تذكر ما حدثوه به بالأمس، و كيف سحب مروان ثلاثة من زملائه على الدرج ودفع بهم خارج مقر الاتحاد محذراً إياهم من العودة أو المشاركة بأي نشاط طلابي لمجرد أنهم خالفوه على اقتراح لا يتوافق مع اتجاهاتهم ..

– ما الذي أضحكك بالله يا عاصم ..؟

– تذكرت كيف ألقيت بمن خالفوك خارج المقر، لو حاورتهم لربما اختلف الأمر..

قال مروان مؤكداً:

– يا رجل هؤلاء لا يفهمون الحوار، عقولهم متكلسة متخلفون، و لا شك أنهم مدفوعون من جهة مشبوهة للتخريب ..

– ربما.. و لكن ليس بهذه القسوة، قد تكسبهم إلى جانبك بدلاً من أن يكونوا ضدك ..

– العقل اليابس لا يجدي معه الحوار، أحياناً تضطر أن تستخدم عضلاتك مع أمثال هؤلاء الأوباش ..

ضحكا معاً، وخرجا دون إفطار، عليهم أن يمروا على بسيم في طريقهما و المسافة إلى مقر الاجتماع تأخذ وقتاً ليس قصيراً ..

كان أول ما نبه إليه أن يتركا الحديث له، إلا إذا كان هناك ثمة تعليق مختصر لانه يدرك أن إحاطتهم بالمواضيع المطروحة غير وافيه، و قدرتهم بالرد على المداخلات محدودة وأي خطأ قد يضيع ما جاء من أجله ..

في أروقة القاعة الفسيحة من مبنى الاتحاد الاشتراكي كان التعارف مع

www.alkottob.com

ممثلي منظمات الشبيبة العربية، الذين أخذوا علماً مسبقاً بحضوره، و كان الترحاب الحار الذي قوبل به دافعاً لتفاؤله الكبير في نجاح مهمته، و لم يخب ظنه باصطحابه لمروان و بسيم معه، سيضفي حضورهما بعداً مظهرياً للجلسة و لم يعبأ بوجود عوني الذي حضر خصيصاً من براغ مدعياً أحقية منظمته المعزولة بالتمثل، فقد كان واضحاً من اللحظات الأولى عدم الاكتراث به، و استغراب حضوره من الجميع ..

ولم يتمالك مروان نفسه فانتحى بعاصم و قال :

– سأطلب منه الخروج من القاعة، و إن امتنع سأحمله و ألقيه من الباب..

زَمَّ عاصم شفتيه و قال ضاحكاً:

– إهدأ يا مروان، وجوده لا يقدم أو يؤخر بالموضوع..

قال مروان محتداً:

– يا رجل لا يفوته مؤتمر أو اجتماع على هذا المستوى، إلا و تراه فيه، من أين يغطي مصاريف سفره وإقامته..؟

– معه بطاقة مفتوحة، ومصاريفه مغطاة، لم يدعه أحد و لن يشارك في الاجتماع ..

خفت حدة صوت مروان وقال باستهجان :

– لماذا يقطع هذه المسافات الطويلة وهو يعرف أن لا مكان لهم هنا ..

– ها أنت ترى عمره تجاوز الأربعين و ما زال يعتبر نفسه طالباً، بالنسبة له نوع من الاستجمام، ونقل بعض المعلومات التي تهم شلتهم في براغ، لديهم مكاسب كثيرة ولهذا يرفضون الوحدة معنا خوفاً عليها ..

– منذ أن رأيته في مؤتمرنا العام في بيروت، لم أرتح إليه، يدعون الثورية والتقدمية ويخدمون الرجعية بسلوكهم..

امسك عاصم بيد مروان وأشار لبسيم ليتبعهما وقال وهو يتجه إلى قاعة الاجتماع:

– لا عليك.. سندعوه إلى الغداء ..

وقبل أن يكمل عاصم حديثه رد مروان بعصبية :

www.alkottob.com

– لا مستحيل أن أجلس معه، أعصابي لا تتحمل وجوده معنا على طاولة واحدة.

– طيب هون عليك، أمامنا جلسة طويلة وحامية، إياك أن تتفعل، معظم الوفود معنا، طيب كما تريد لن ندعوه.

لم يخب أمل عاصم فكان أول قرار يتخذ بالإجماع الموافقة على عضويتهم في اتحاد الشباب العربي، وبرز صوت تصفيق مروان بكفيه الهائلتين عالياً معبراً عن غبطته الكبيرة ليس بالقرار المتخذ فقط، بل بالطلب إلى عوني مغادرة قاعة الاجتماع وإبلاغه بضرورة التحاقهم بالمنظمة الشرعية للطلبة الأردنيين.. ولم يكتف بهذا الحد من التصفيق بكل قوته بل سارع إلى احتضان عاصم مقبلاً إياه بشدة، والابتسامة العريضة لم تفارق شفتيه، شاكراً إياه على مداخلته المعبرة والمقنعة التي أوضحت الحقيقة وجلت الالتباس، ولم تترك مجالاً لأية محاولة للتأويل أو التضليل.. وفي غمرة الشعور بالزهو وألق الانتصار شكر عاصم زملاءه وتمنى لهم التوفيق و النجاح في مهماتهم.. وانفض الاجتماع على أمل لقاء قريب..

ولم يتمالك مروان نفسه وقال وهو يفتح باب سيارته:

– لنذهب إلى مقر الاتحاد ونحتفل ..

– تمهل قليلاً، لم نأخذ إفطارنا بعد، والساعة تقارب الثالثة أتريد أن نصوم اليوم ؟

– لا يا رجل صدقني نسيت حالي، إذن لنذهب إلى الغداء وسنحتفل الليلة حتى صياح الديك ..

– إلى أين ستأخذنا إذن ..

– مطعم العجمي ..

– وهل هو مطل على النيل ؟

– .. على النيل..! ليكن ..

قال عاصم بشيء من الأسف موجهاً حديثه إلى بسيم:

– أتعرف يا بسيم من الخطأ أن لا ندعو عوني إلى الغداء ..

– أوافقك الرأي، كم تأثرت على خروجه من القاعة بهذا الشكل المذل، كان من الأفضل له لو لم يحضر ..

www.alkottob.com

علق مروان بدون مبالاة :

– حضوره وقاحة أو سلوك لا وطني، بضعة أفراد في موسكو وبراغ يرفضون الاتحاد معنا لماذا؟ نحن نمثل كل الأطراف الوطنية و القومية، مصالحهم الشخصية أولاً، وكلامهم الفارغ عن الوطنية والتقدمية مجرد لغو و ادعاء وكذب.

رد عاصم :

– لا شك بذلك قصدت أن أدعوه لأبين له كيف نتعامل معهم بنبل، رغم سلوكهم الهجين ..

ضاعف مروان من سرعته محاولاً تجاوز السيارات العابرة من أمامه وقال بعصبية ظاهرة:

– متزمتون و قصيرو نظر، لا تهمهم إلا مصالحهم الشخصية، عوني وأمثاله يعطلون أي توجه لعودة جماعتهم إلى اتحادنا، يخشون على مكاسبهم ، أقترح أن نسميهم الجوالين ..

ضحك ثلاثتهم بصوت عال وصفق بسيم بيده :

– إنه اقتراح رائع، ولكنهم لا يمتلكون فروسية الجوالين، أكثر ما يشبه الحاوي الهندي، نحيف ودقيق الملامح، ويبدو أنه خارج من مجاعة ..

قال مروان وقد أعجبته فكرة صاحبه:

– هذا تشبيه ملعون، أعترف أنك أكثر ذكاء مني ..

وعلق عاصم مواصلاً الضحك :

– لننسى الأمر يا جماعة.. انكشف وضعهم للجميع، ولا أحد يكترث بهم، دعوني أتمتع بهذه المدينة الساحرة ..

قال مروان:

– دقائق ونصل إلى أجمل كازينو على النيل، الجلوس فيه متعة لا توصف..

كانت ظلال الأشجار الباسقة تفرش المسرب المؤدي إلى الكازينو برداء رمادي هادئ وبعض الطيور الصغيرة تطير على الجانبين وزقزقاتها تملأ المكان كأنها ترحب بقدومه، هكذا اعتقد وهو يشعر بسعادة غامرة ..

www.alkottob.com

لدى الشباب دائماً طاقة هائلة مختزنة، كلما هدأت قليلاً عادت لتولد من جديد أكثر عنفاً، رقصوا وغنوا وكان أكثرهم صخباً من تناول كأساً في طريقه قبل أن يأتي ليشارك زملاءه الاحتفال الذي دعا إليه مروان على عجل في مقر الاتحاد.. رغبات مكبوتة تتفجر مع الحركات السريعة، وتتصاعد في الحمى الجماعية، وتتلاشى على الجدران المهتزة التي يحدثها إيقاع الأقدام الخابطة على أرض الصالة المرتجفة التي ضاقت بهم، ودفعت أكثرهم خجلاً إلى المشاركة في اللهو و الرقص.

يقال أن الرقص هو الأسلوب الأفضل للتقرب إلى الله حتى الملائكة مرسومة بأجنحة نورانية تطير وترقص في السماوات اللامتناهية.

هكذا فسر له يوماً أحد القساوسة المهتمين بإبداعات الفنانين القدامى.. رقصة السماح الحلبية، و المولوية السورية التي يتقنها أتباع بعض الطرق الصوفية، هي نوع من التعبير، أوعلى الأصح التلاشي من المحسوس إلى المتخيل.. لماذا يتعب ذهنه بتفسيرات لا ضرورة لها.. وقد تضاعفت حماسته وهو يخبط بقدميه مع إيقاع الطبلة المنتظم..؟ والأغنية الريفية الجميلة يرددها الجميع بصوت شجي، لا أجمل من عنفوان الشباب وفرحهم .

حضوره كان دافعاً مضافاً لإطالة الاحتفال، ووجد مروان المناسبة لإعطاء الانطباع بدوره القيادي و التفاف الطلبة من حوله..وهو ما يعني بالتأكيد استمرار رئاسته لعدة سنوات قادمة والتي تنتهي بتخرجه من الجامعة وهذا ما يؤيده به.. بكل تأكيد.. عندما توقف صوت الطبلة، بدأ الجميع يمسح العرق المتصبب على وجوههم ويبلل قمصانهم كانوا منهكي القوى، ولكنهم سعداء بأدائهم وتوزعوا الحلوى وأكواب المياه الباردة التي أطفأت ظمأهم .

كان الليل قد انتصف وهم يهبطون الدرج عائدين إلى بيوتهم وصدى ضحكاتهم يتلاشى في ليل القاهرة الجميل ..

الجو العصف بالمرح الذي بعثته حمية الشباب المتحفزة و المنطلقة شابه إحساس بكآبة غامضة في نفس عاصم كلما التفت إلى اللوحة الكبيرة المعلقة على الجدار التي تحمل رسماً لعبد الناصر و هو يخطب بالجماهير المحتشدة في ساحة رمسيس.. هو الأثر الوحيد الذي شاهده لهذا الرجل الكبير الذي كان يملأ الدنيا، و يشغل الناس، خلال اليومين الماضيين على وجوده في القاهرة.. أيمكن لبضعة سنوات على غيابه أن تمحو صورته من الذاكرة الشعبية، أم هي راسخة

www.alkottob.com

في القلوب لا تعلن عن نفسها في المناخ السائد الآن ؟

لن يلحظ وجود أي تمثال لـه فـي الساحات التـي شـاهدها أو أي دليل آخـر يبعث علـى ذكراه حتـى شـارعاً باسمه لم تلحظـه عينـاه.. حقيقـة مؤلمـة أن يتـوارى ظل هذا الإنسـان العظيم الـذي كـان يغطـي مسـاحة الـوطن كلـه مـن أقصـاه إلـى أقصاه.

هكذا هـي الحيـاة.. قـال فـي نفسـه.. حتـى الأنبيـاء لهـم محبـوهم و منكـروهم. الأجيال وحدها هي صاحبة الحكم الأخير..

و تكـرر السـؤال القاسـي هـل اسـتكثروا تسـمية شـارع باسـمه.. يـا لهـول مـا يفعلون ..

فـي الوقـت الـذي انشـغل بـه بسـيم بمسـح الزجـاج الأمـامي والخلفـي للسـيارة للعودة إلـى البيت تفاجأ بمروان يحـل ربطـة عنقـه و يضـعها جانبـاً و يتنـاول مـن جيـب سـيارته " ببايونـه "مرتبـة بعنايـة و يلفهـا حـول ياقـة قميصـه المنشـاة قبـل أن يحرك سيارته باتجاه معاكس و يقول منتشياً ..

– سنكمل سهرتنا الليلة ما زال الوقت باكراً..

ضحك عاصم و قال :

_ الساعة تجاوزت الثانية عشرة، و هل بقي مجال للسهر ؟

رَدَّ مروان مبتسماً:

– الليل بأولـه يـا عاصـم، القـاهرة مدينـة لا تنـام، عيـب علينـا أن نضـيع هـذا الوقت بالنوم و أنت تزور القاهرة لأول مرة ..

– كمـا تريد أنـا أسير لـديكم الآن، و أنـا أحـب السـهر أيضـا، فكيـف إذا كـان برفقتكم ..

و التفت إلى بسيم الجالس في المقعد الخلفي كأحد الباشوات الأتراك :

– ستذهب معنا بالطبع.. أليس كذلك

– و هل أنـا أحمق حتـى أضـيع هـذه الليلـة.. بالطبع سـأذهب، أن نكـون مـع مروان متعة بحد ذاتها ..

_ أتدري يا مروان هناك سؤال يحيرني..؟

_ ما الذي يحيرك..؟

www.alkottob.com

_ مررنا بشوارع كثيرة في القاهرة تحمل أسماء رجال عظام من تاريخ مصر، و لكنني لم ألحظ اسماً لجمال عبد الناصر ..

رَدَّ مروان بأسف :

– لن تجد هذا الشارع، رغم مرور أكثر من خمس سنوات على رحيل هذا الرجل العظيم ..

– إنه شيء يبعث على الدهشة و الاستنكار ..

– لا تستغرب يا عزيزي فالسلطة تحاول محو أي أثر له و لكنها واهمة، فهو في قلوب الناس و عيونهم .

– أكاد لا أصدق ذلك

_ هذا هو الواقع.. المنتفعون و الحاقدون الرجعيون المرتبطون، لا عمل لهم اليوم سوى الهجوم على عبد الناصر و منجزاته و تاريخه، حملات مسعورة تشنها أقلام خائبة لا تجد صدى لها سوى الاستنكار..

_ أيعقل أن تصل الأمور إلى هذا الحد ..؟

_ و أكثر من ذلك.. إنها مرحلة النخاسين و الطفيليين فاقدي الضمير والكرامة، ذئاب جائعه لايشبعها شيء. – والملايين التي كانت تهتف باسم ناصر أين هي الآن .

_ مصر تبقى مصر و شعبها الوفي لا ينسى رجالاتها العظام إنها مرحلة عابرة و ستنتهي قريباً ..

لم يلحظ عاصم بداية لماذا طلب منه مروان أن يلبس بذلته و ربطة عنقه.. فهم الآن سبب ذلك، يبدو أن هناك سهرة خاصة تتطلب شياكة ما! لم يوضح له عندما سأله إلى أين؟ كان جوابه مختصراً، ما عليك ستكون، سهرة ممتعة، ليل القاهرة ينسيك همومك إن كانت لديك هموم ..

أمام الباب الرئيسي لفندق المريديان الفخم أوقف مروان سيارته و ترجل ثلاثتهم،و سرعان ما تسلم الحارس الليلي مفاتيحها و انطلق ليركنها في مكانها المخصص ..

دخلوا في البهو الواسع كانوا بكامل أناقتهم، و بدا مروان و هو يتقدمهم بخطوة أو خطوتين بجسمه الفارع ومنكبيه العريضين و بدلته الكحلية الداكنة و بابيونته الحمراء، رجل أعمال كبير، أو صاحب شركة ضخمة، أو أمير من سلالة

www.alkottob.com

ملكية أوربية، و هامات عمال و موظفي الفندق تنحني احتراماً و هي ترد تحيته التي لا تتجاوز إيماءة من رأسه .

مروان المنتشي بالنصر لديه ما يبرر احتفاله بالنشوة في ذاك الكازينو أو في هذا الفندق المألوف لديه. الشخصية التي تملكت مروان جعلتهم ينقادون خلف خطواته.

الضيف القادم من دمشق كان حريصاً، و خشي أن يفتر فمه عن شيء، فلم يعرف أهو يرد تحية المساء أم الصباح، و لم يلحظ ملامح و جهه الجدية الباردة و هو مقاد خلفه بلا إرادة متخذاً السمات نفسها التي عدت بسيم أيضاً، مدركاً دون أن ينبه لذلك الحرص على اجتناب أي خطأ في التصرف قد يفسر بعكس الصورة، أو الانطباع الذي تركه مروان لدى إداري الفندق كرجل مهم مرحب به في كل وقت.

و لم يخب تقديره للوضع عندما رحب بهم مدير الاطعام في الفندق بابتسامة واسعة، أهلا مروان بيك أهلا أهلا .. وقادهم الى طاولة مميزة في البار الأنيق، يطل الجالس منها على مياه النيل الساحرة بانسيابها الأبدي وعلى صالة الألعاب الفخمة في القاعة المجاورة.. كان مكاناً مدهشاً بكل المقاييس بالنسبة له.. ديكورات فنية أخاذة، أضواء باهرة، رواد متأنقين منهم من يقف حول طاولة الألعاب، أو يجلس مستريحا يحتسي كأساً من الوسكى أو البيرة، والفتيات الفاتنات يظهرن من أجسامهن السمراء أكثر مما يخفين، وهن يتبخترن يقدمن أقداح الويسكي المتلألئة على الصواني الفضية كأنهن وصيفات كليوباترا بعثن من جديد أو من سلالتها.. زاد من دهشته بهذا الجو العابق برائحة العطور الغالية ودخان السيجار الغالب على المكان، انحناءة المضيفة الفائقة الجمال وقميصها الحريري يكشف مساحة كبيرة من صدرها ولا يخفي إلا القليل من نهديها و تحيتها الرقيقة لمروان بيك.. وسكي، كالعادة مروان بيك..؟ وأجابته دون أن تتغير ملامح وجهه الجادة.. كالعادة يا ناديا، والشباب أيضاً.. دون أن يسأل عن رغبتهما بذلك ..

هل وقع في مأزق وهو يعرف أن مروان لم تصله الحوالة البريدية من أهله بعد، والشهر في أواخره، ولا يملك النقود الكافية لتغطية سهرة في مثل هذا الفندق الفخم ؟ كل ما يملكه هو لا يتجاوز المائتي دولار بالكاد تكفي مصاريف الأيام الخمسة المتبقية لعودته الى دمشق.. وهو لم يشتر بعد هدية لحبيبته حتى بطاقة بريدية لم يرسلها كما تعود دائماً.. لابد أن مروان يتدبر الأمر، ومن الواضح أنه يعرف معظم العاملين في الفندق، وهذا يعني أنه يتردد كثيراً على المكان.. لكن

www.alkottob.com

سؤالاً حائراً يشغل فكره.. كيف سيسدد فاتورة الحساب .؟

احتسى قليلاً من الويسكي، لينسى أمر الفاتورة والحساب.. المهم أن يتمتع بهذه الجلسة الساحرة، لماذا يربك نفسه وهو مدعو إليها، من السخف أن يعكر مزاجه في هذا الجو الجميل.. تناول سيجارة قدمها له بسيم، وأشعلها وقال موجهاً حديثه لمروان :

_ لم أتوقع كل هذا الترحيب بك، يقابلونك باحترام زائد.. يبدو أن الكل يعرفك هنا ..

ابتسم بسيم ورفع مروان كأسه وقال ضاحكاً :

_ لنشرب نخبك ياعاصم بصحتك ..

واحتسى جرعة كبيرة وتابع ..

_ بالطبع.. فأنا أتردد بين فترة وأخرى على هذا المكان، و نتمتع بسهرة رائعة لا تكلفنا شيئاً ..

قال عاصم متعجباً :

_ وكيف..؟ ألا تكلف هذه السهرة كثيراً..؟

_ ما عليك.. لا تهتم بهذا الموضوع.. المهم أن تكون مسروراً معنا ..

قال عاصم بارتياح بعد أن تخلص من ارتباكه الظاهر:

_ قضيت ليلتين رائعتين معكما.. لم أتوقع أن أسهرفي مثل هذا المكان الساحر ..

سحب مروان من جيب سترته الداخلية سيجاراً فاخراً ، وقص طرفه بالقاطعة الصغيرة الأنيقة وأشعله بعود ثقاب قدمته إحدى الجميلات الساهرات على راحته، وقال وهو ينفث دخانه بطريقة مسرحية ..

_ لدينا الوقت الكافي، لن نترك مكاناً مهما دون أن نزوره الأهرامات، شارع الهرم، خان الخليلي، المتحف، برج القاهرة، سفينة النيل ولن ننسى زيارة مبنى الأهرام ..

وتساءل عاصم.. بشئ من الاستغراب ..

_ وهل تعرف أحداً فيها ؟

ردَّ مروان باعتزاز :

www.alkottob.com

_ لي صداقات كثيرة مع صحفيين وفنانين مشهورين يا عاصم، أن ساعدنا الوقت سأعرفك على بعضهم ..

لم يتسنى لعاصم سؤاله عن أسماء بعضهم فقد هب مروان مرحباً بقدوم صديق له كامل الأناقة له عينين سوداوين، وشعر أسود مصفف بعناية، وبشرة وجهه السمراء التي لوحتها شمس صحراوية يستدل منها أنه أحد أبناء الخليج وعدد من أتباعه وقفوا على مسافة قريبة منه، عانقه مروان بحرارة ودعاه للجلوس إلا أنه قال له معاتباً :

_ لم أرك منذ أسبوع أين اختفيت يا رجل ؟

ردَّ مروان ضاحكاً :

_ أترى لدي ضيف هنا، انشغلت بعض الوقت، وقد هاتفتك أكثر من مرة ولم أجدك، أني مشتاق إليك، أعرفك على الأستاذ عاصم، وبسيم لا حاجة للتعريف ..

سلم عليهما بحرارة وقال موجهاً حديثه لمروان :

_ ماذا.. أراك جالساً ألم تلعب بعد ..؟

_ جئت باكراً اليوم، لم يحالفني الحظ، خلال ساعة خسرت ألف دولار هي كل ماأحمله معي، وأنت تعرف أني لاأحب أن أتعامل بالشيكات مع إدارة الكازينو ..

قال صاحبه بإصرار :

_ لن تعود خاسراً، هيا قم معي سنعوض الخسارة إن شاء الله، لن ألعب دونك أنا أتفاءل بك ..

_ لنشرب كأساً يا شيخ ..

_ لا، بعد أن ننتهي من اللعب.. تستريح وتشرب كما تريد ..

وسحب مروان من يده باتجاه صالة اللعب وتبعهما عاصم وبسيم.. كم كانت دهشة عاصم كبيرة وهو ينظر إلى هذا الشيخ الكريم، وهو يسحب محفظة نقوده ويعطي لمروان رزمة من الدولارات قدر أنها لا تقل عن ألف دولار ..

كاد لا يصدق ما يجري أمامه، ادعاء مروان وبأعصاب هادئة بلعبه على طاولة الروليت، وخسارته مبلغاً يساوي راتبه خلال عام، وهو لم يتحرك عن كرسيه منذ دخولهم حتى قدوم صاحبه الخليجي .

www.alkottob.com

ماهذه القدرة التي يمتلكها في التمثيل ..؟ يبدو الأمر خارج حدود فهمه، لايستطيع أن يستوعب هذا السلوك، ويوافق عليه .

ولكنه لا يدري لماذا أحب مروان لدرجة قللت إلى حد كبير استنكاره لكذبه.!

لقد أحس منذ دخولهم إلى الفندق وحتى الآن، أن مروان الذي يعرفه هو شخص آخر يتقن تمثيل دور من الصعوبة على أي كان أن يماثله في الإتقان، لو كان مخرجاً سينمائياً لأختاره لبطولة أي دور يقوم به، مظهره ،وسامته، أناقته تلفت الانتباه إليه، ولا تترك أي مجال للشك بأنه مازال طالباً يعتمد في معيشته على أهله.. لقد فاجأه الأمر الى حدود الصدمة، ولكنه لا يستطيع أن يبدي أي اعتراض لقد أصبح جزءاً من المشهد، وأي تصرف خارج عن سياقه يفسده، ويشوه الصورة التي كونها مروان عن نفسه، عند هؤلاء الذين يعتقدون أنه رجل أعمال كبير، يقتضي عمله توزيع وقته بين القاهرة وعمان وأن الفيلا الفاخرة التي يقيم بها ليس إلا مكان لراحته بضعة أيام في الشهر.. ولكن أكثر ما أثار استغرابه مناداة بسيم له بإضافة صفة الباكويه لاسمه بكل خشوع، واحترام، ولكنه لم يجد القدرة لديه ليماثله في ذلك، فلزم الصمت، خوفاً من أن تخونه ملامحه ويستغرق في ضحكة طويلة فاضحة ..

لم يخف متعته وهو يراقب حركة الكرة العاجية وهي تدور بسرعة خاطفة على طاولة الروليت لتسقط في خانة أحد الأرقام المحظوظة.. وعيناه تنتقلان إلى فيش اللعب على الأرقام التي اختارها مروان، ثمانية عشر، ثمانية و عشرون.. في الدورات الثلاثة الاولى لم يحالف الحظ أيّاً من أرقامه .. وفي الدورة الرابعة وضع مروان عدة فيش على الرقم ثمانية الذي يفضله، ودارت الكرة وثمة هاجس داخلي يوحي له بأنها ستستقر على الرقم نفسه، ومرت الثواني وأعصابه تكاد أن تحترق بينما لم يلحظ أي تغير على ملامح رفيقه الهادئة، وما أن قال مدير اللعبة ثمانية، حتى كاد أن يقفز من مكانه، لقد شعر بسعادة غامرة ولم يتمالك نفسه، وقال بعفوية: رائع مروان بيك ..

ولأن الحظ أحياناً يفلق الصخر كما يقولون، فقد تكرر الرقم ثلاث مرات، وتجمع أمام مروان كومة من الفيش الصغيرة والكبيرة قدرها باكثر من ثلاثة آلاف دولار . لم يتوقف مروان عن اللعب طيلة ساعتين متواصلتين كان أغلب اللاعبين خاسرين على طاولته ومنهم صديقه الخليجي الذي لم يحالفه الحظ الليلة فانسحب عندها ترك مروان مكانه وجيبه منتفخة ببلاكات الربح الوفير، لم يذهب بها إلى الصندوق بنفسه بل سلمها لبسيم الذي يعرف ما عليه أن يفعل.. ورافق صديقه

www.alkottob.com

الشيخ الذي بدا عليه الانشراح حتى الباب الخارجي، وعاد إلى البار حيث جلس رفيقاه بانتظاره وقرع كأسه بكأسيهما وقال :

_ بصحتك عاصم وجهك فأل خير، حظي اليوم بالقمة، إنه حظك ..

_ أفرحني ذلك كثيراً، الخسارة شيء مزعج، ولكن صاحبك خسر مبلغاً كبيراً، ولم يبد عليه أي تأثر، بالعكس كان مسروراً ..

_ الخسارة لا تعني شيئاً بالنسبة له جاء ليتسلى، ربح أم خسر الأمر سيان، المهم أن يتمتع بوقته ..

_ أتعرف يا مروان أنت تملك قدرة عجيبة على إقامة العلاقات العامة، لقد فاجأتني تماماً، كان لديك بضعة جنيهات والآن ثلاثة آلاف دولار، شيء مدهش.

_ آمل أن لا تأخذ فكرة خاطئة عني، في هذا الوسط أتصرف كأني شخص آخر ..

_ لا أبداً إنها سهرة ممتعة، أشكرك عليها .

علق بسيم مازحاً :

_ هل أتقنت دوري كمرافق مروان بيك..!

رد مروان ضاحكاً :

_ اخرس قد يسمعك أحد ..

على طاولة قريبة كانت تجلس صبية حسناء وإلى جانبها فتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره تصوب نظراتها إليهم وثغرها يفتر عن ابتسامة ليست خجولة، وكأنها تنتظر دعوتها للجلوس معهم، لم يهتم عاصم بالأمر، ولكن مروان رمقها بنظرة لم يفهم أبعادها إلا وسيارتها تتبع سيارته وهم في الطريق إلى البيت ..

من الطبيعي أن يقابله المضيفون والعاملون في البار وصالة اللعب بكل هذا الترحاب الذي أحيط به، ولم يستغرب أن يوزع مائتي دولار من أرباحه عليهم، وإن كن الحسناوات قد نلن النصيب الأكبر، وهذا الكرم الحاتمي يليق بشخصية كهذه .كان يجلس في المقعد الأمامي كأنه منوم مغناطيسياً لا يعترض على شيء، وهذه الحسناء التي تلحق بهم لا بد أن تقض بقية الليل معهم، لم يتقبل الأمر بداية داخل نفسه، ثمة ضوابط كثيرة تدفعه ليعلن اعتذاره، لكنه لم يفعل، لقد ضعف أمام إغراء هذه الراقصة السمراء، إنها ليلة عابرة، لا بأس، وانتشله مروان

www.alkottob.com

من تفكيره ..

_ أنت في ضيافتنا الآن ولدينا الكثير، لن نسمح لك أن تصرف قرشاً واحداً من جيبك .

_ غمرتموني بكرمكم، لا أعرف كيف أرده ..

حالة من الانتشاء بدت واضحة على ثلاثتهم،ورائحة الويسكي المنبعثة من أفواههم تقلل من حدتها الرياح العابرة من نافذة السيارة ..

رد مروان وهو يلوح بيده لضيفة آخر الليل:

– لا تقل ذلك، من أجمل أيامنا وجودك معنا.. سنكمل سهرتنا الليلة، الحظ معنا، لقد اكتمل برفقة هذه الجميلة لنا ..

في صباح اليوم التالي لم يعد يذكر التفاصيل تماماً، كل ما يذكره، حلم ليلة طويلة انتهى بجنون راقصة طاغية الأنوثة، وجسد بوهيمي مرتعش، كعاصفة استوائية حارة اجتاحت سريره وتركته بلا حراك على فراشه الوثير ..

www.alkottob.com

الحفاوة التي لقيها من رفيقيه طيلة الأيام السبعة التي قضاها في القاهرة، تركت في نفسه أثراً طيباً وإحساساً عميقاً بالامتنان، الذي بدت تعبيراته بالعناق العاطفي الحار وهو يودعهما قبل صعوده إلى الطائرة العائدة إلى دمشق.

لم يتركاه يوماً وحيداً، جالا معه كل معالم المدينة العظيمة، وأحيائها القديمة والجديدة، مسارحها، جامعاتها، نواديها.. ثمة سر فيها يدفعك على عشقها.. طيبة الناس فيها ورقة استقبالهم أينما ذهبت أو حللت.

لا بد أن يعود يوماً إليها لقضاء شهر العسل مع حبيبته.. فك حزام الأمان عن خاصرته بعد أن استوت الطائرة في تحليقها، ألقى نظرة من النافذة وبدت السحب البيضاء العابرة أكواماً هائلة متفرقة من القطن المنتوف، والنيل العظيم كساقية صغيرة.. اعتدل في مقعده بعد أن اعتذر من المضيفة الجميلة عن شرب شئ.. أسند رأسه، لم يتناول الجريدة اليومية الموضوعة أمامه، لا رغبة له بالإطلاع على أخبار الأمس، أسئلة كثيرة دارت في ذهنه، هل وصلت البطاقة البريدية التي بعث بها إلى حبيبته، سبعة أيام كافية لوصولها، ستسر بها كثيراً، وهي تنتظر عودته بلهفة لتزف له موافقة والدها على خطوبتهما، إن حدسه لا يخيب رغم معرفته بعناده وتصلبه، ربما كان عليه أن يمضي تلك السهرة الصاخبة حتى نهايتها، كان عليه ألا يضعف أمام أغراء تلك الراقصة السمراء، لقد أساء لحبيبته، أساء لقيمه التي يؤمن بها، لن يكرر هذا الأمر في حياته.. خطيئة عابرة عليه أن ينساها، ربما كان ثملاً لدرجة فقد فيها السيطرة على تصرفاته.. وهو لن يسمح لنفسه أن يكرر ما حدث معه تلك الليلة.. نجاح مهمته التي جاء من أجلها ستسر زملاءه، ستعطي دفعاً لمنظمتهم الطلابية، ودوراً أكبر على الساحة السياسية والنضالية.. إنه إنجاز كبير يحق له.. أن يفتخر به بين رفاقه، صور شتى تراءت له.. والده ووالدته و اخواته الذين لا يعرفون شيئاً عن رحلته، والدالية المعرشة على باب بيتهم في جبل عمان، والريح تعبث بأوراقها المخضرة، كما عبث النعاس في عينيه وأسلمه لنوم عميق ..

في شقته الصغيرة في باب توما، يحس براحة متناهية. أحياناً تملك الأشياء لغة صامتة معبرة تشعره بألفتها. سريره الموضب بعناية خزانته المستندة على الجدار والكنبة الكبيرة التي طالما غفى عليها، وهو يتابع بعض البرامج المحببة

www.alkottob.com

إليه في تلفزيونه الصغير، كتبه الدراسية القابعة في مكانها على طاولته لم يفتحها بعد، وصور جميلة يبدو تناقضها له منتهى الانسجام.. أحصنة برية جامحة، ونسور تحلق في الفضاء، وغابات صامتة على شواطئ البحر، وثائر عظيم قضى برصاص أعداءه قي أدغال بعيدة.. إنسان بخلفية برجوازية يتمرد على نمط حياته المرفهة، يرتدي ملابسه الخشنة ويحمل بندقيته ويلجأ إلى الجبال المتوحشة، ينتقل عبر الصخور، ويفترش الأوراق الجافة يلتحف السماء أحياناً يصبح جزءاً من حياة الغابة القاسية، معتقداً بقدرته على تغيير العالم، ونشر الحرية والعدالة في أرجائه.. أي روح تلك التي يحملها، وأي حلم ذاك الذي قاده إلى مصيره ..؟

الصفاء الذي يشعر به هنا لا يجده في أي مكان آخر.. إحساس بالسكينة التي تبعث نوعاً من الخدر اللذيذ، يتراءى فيه الأحلام الجميلة، صوراً مشرقة لمباهج الحياة.. فتح حقيبته المركونة في الزاوية وتناول كيساً مخملياً ناعماً، أفرغه على السرير أمامه.. محبسان ذهبيان لليوم الذي ينتظره، اليوم الأجمل في حياته، خاتم فضيٌ تتوسطه حجرة زرقاء غاية في الجمال والأناقة، طوق من اللؤلؤ، ومشبك للصدر رسمت عليه بعناية فائقة صورة إحدى آلهات الفراعنة تقف إلى جانب شجرة نخيل دانية قطوفها، ربما رمز صناعها المهرة في خان الخليلي إلى ديمومة الحياة.. و ألبوم صغير يحمل صورة لعاشقين يقفان وحدهما على شاطئ بحر لازوردي، تحرسهما طيور النورس البيضاء، وتحمل حكاياتهما ريح عابرة إلى أمكنة بعيدة.. شوق عميق لا يعرفه إلا من أحب مثله للقاء حبيبته .

غداً سينهض باكراً وينتظرها عند المحطة، قبل أن تذهب إلى الجامعة، لا يستطيع أن يحتضنها بحرارة أمام أعين الآخرين، وماذا لو فعل ..؟

ستكون قصة يتلهى بها الناس سرعان ما تنتشر، وتصل أسماع أهلها الذين سيقيمون الدنيا على رأسها، لا لن يفعل ذلك.. يكفي أن يصافحها ويلثم أناملها، فبعد أيام قليلة ستصبح خطيبته، لن يجرؤ أحد بعد أن يحوك قصصاً وهمية تلوكها ألسن فارغة لاتجد متعتها إلا في اغتياب الآخرين ..

وضع الكيس المخملي الذي يحمل هديته الصغيرة إلى جانب مخدته بعناية ورفق، تذكر والدته الحنون التي لم تنس يوماً التأكد من وجود الآيات المقدسة التي دستها تحت وسادته لتحفظه من الشرور، كم هي طيبة القلب هذه الأم التي لا يفوتها أن تشعل البخور صباح يوم الأحد، وتبخر غرف البيت كلها، قبل أن تذهب إلى الكنيسة في حي العبدلي مزهوة به وهو يسير إلى جانبها مرتدياً بذلته الوحيدة التي لا تخرج من خزانتها إلا في المناسبات المعروفة، وبشقيقته التي

www.alkottob.com

يغطي شعرها الذهبي كتفيها حتى منتصف ظهرها، والوردة التي تشبكها على جانبه، تبدو بفستانها الأزرق كلعبة جميلة.. لم يكن يعي كثيرًا تلك الطقوس المكررة، ولكنه كان ينتشي بصوت الكورس وهو يشدو بترانيم لا يفهم كثيراً من معناها.

كثيراً ما حاول التمرد على مرافقة والدته، حتى لا يضيع وقت لعبه مع أترابه،إلا أن إصرارها الشديد لم يكن يسمح له بالإفلات، حتى والده الذي لم يكن يعنى كثيراً بقداس الأحد، كان يبحث عن أسباب مقنعة للاعتذار عن مرافقتهم إلا أنه كان يستسلم لرغبة زوجته التي كانت تعتبر ممانعته خطيئة كبيرة تلحق الضرر بعائلته كلها.. وعندما كان يسألها من يرعى قداس اليوم، الكاهن اليوناني أم العربي، تجيبه، لا أعرف وما علاقة ذلك بالصلاة ؟ أنت تصلي لله وليس لهذا أو ذاك.. كان يصمت، لم يكن يعرف معنى سؤال والده إلا بعد أن تجاوز طفولته، والده يرى مفارقة كبيرة أن يسيطر رجال الدين اليونانيون على مقدرات الكنيسة و الرعية.. لم يصل كاهن عربي إلى سدة المطرانية، إنه استئثار غير مقبول، رغم محبته للشعب اليوناني، إلا أن هذا لا يبرر امتلاك الاكليروس اليوناني في القدس، التحكم بمقاليد الأمور ومنعها عن العرب . يجب تصحيح الوضع وإعادة الحق إلى أصحابه.. هكذا قال لوالده الذي ربت على كتفه مسروراً.. مرت سنوات طويلة لم يذهب أثناءها إلى كنيسة إلا فيما ندر، حتى الترانيم القصيرة التي حفظها في طفولته تلاشت من ذاكرته.. يعرف أن والدته الطيبة تنهض كل صباح، وتتلو صلاتها المعتادة بخشوع أمام صورة العذراء النقية، وتدعو له بالتوفيق والنجاح في غربته.. وعندما كان يقول لها..لا غربة في دمشق يا أمي . كانت تجيبه أنت غريب يا ابني مادمت بعيداً عني.. لا يستطيع أن يذهب ويرتمي في أحضانها الدافئة، ويحدثها عن خطيبته التي ستحبها حتماً، رغم أنه لم يستشرها بذلك ولكن حراس الحدود المتأهبين دائماً لن يمنحوه هذه الفرصة فمهمتهم تقييد يديه واقتياده إلى سجن المحطة، و ربما تمر شهور طويلة دون محاكمته أو إطلاق حريته.. لن يغامر بالعودة، فصحتها لا تقوى على احتمال ذلك أبداً.. ربما تتغير الظروف، لا بد أن تتغير، طبيعة الحياة متغيرة، السكون يعني العدم ..

نهض عن سريره لإغلاق النافذة و إطفاء النور في غرفته، فلحظت عيناه رسالة ملقاة خلف الباب لم ينتبه لها عند دخوله، انتابته مشاعر قلقة و سارع إلى تناولها و فض غلافها

www.alkottob.com

عزيزي عاصم ..

لن اغفر لنفسي لمدة طويلة لأنني لم أستطع انتظار عودتك لوداعك قبل عودتي إلى بلدي بعد يومين فقط من سفرك، لم أستطع أن أحتمل، فقد انتصر المقاول فاقد الضمير و نفذ ما أراده في البناء بعد أن أخذ موافقة مَن كنت اعتبره صديقاً، المهندس نبيل و هو لا يملك من النبل شيئاً، كل ما أخشاه أن يأتي يوم و ينهار ذلك البناء المغشوش على رأس أصحابه حاولت جهدا مستطاعا، و لكن اعتراضي ذهب أدراج الرياح، لم أتمكن من احتمال ذلك.. استقلت من عملي في المحافظة، و لو لم أفعل ذلك فاللعنة الأبدية ستلاحقني دائماً،

وأنت تعرف أنني لا أساوم على مبادئي لو امتلكت أموال الدنيا كلها،

ربما في هذا بعض العزاء لي ولك.. أعرف أني سأواجه ظروفاً صعبة على يدي زوار الفجر وقد تمر سنوات طويلة ولا نلتقي على الرغم من قصر المسافة بيننا، لا أعرف إذا كنت سأحظى برفيق مثلك، أترك دمشق و الحزن يملأ قلبي،

أخبرني إن استطعت هل سأجد مدينة مثلها..

آمل أن تصفح عني، قد تقول إني نزقٌ أو عصبي، لم أستطع المواجهة و الاحتمال، ربما لك بعض الحق في ذلك، ولكنني اتخذت قراراً غير نادم عليه، لن أنسى أيامنا الجميلة معاً، و أعرف إنك لن تنساني ..

ارتجفت يده و هو يعيد قراءة الرسالة مرة ثانية، انتابه شعور بالأسف تحول إلى كآبة خرساء، وهو يطوي رسالة صديقه، و يعيدها إلى غلافها، كانت مفاجأة قاسية، فخسارة صديق بمواصفات نزيه، مسألة ليس من السهولة احتمالها، هل كان قراره صائباً، أم كان عليه الثبات و المواجهة ..؟ لماذا يترك الساحة للنهابين و اللصوص، فتطول مخالبهم بدلاً من نزعها من جذورها ..

من المحزن أن يهزمه مقاول جشع بأمواله القذرة، ومهندس مفجوع بالنقود ليزيد الثروة التي ظهرت عليه منذ العام الأول الذي عمل به إلى جانب صديقه الذي أحبط إلى هذا الحد الذي يقود فيه معركة خاسرة ..

في تلك الليلة راودته أحلام متناقضة كان في ذروتها كابوس أطبق على كيانه فهزه هزاً عنيفاً، وأيقظه مع بزوغ فجر شاحب، لم يستطع بعده العودة للنوم، وأخذ قسطٍ من الراحة الكافية لجسمه المتعب ..

www.alkottob.com

***

www.alkottob.com

باعة الخضار و الفواكه يجوبون الأزقة و الحارات، و ترتفع أصواتهم بالمناداة على أحمالهم، و تختلط أحياناً، يضيع التفاح مع الكوسا و الخس مع الفاصولياء و الحليب مع الباميا، وأحياناً تكون ملحنة ربما لتطرب صاحبها أو لإغراء الزبائن، وغالبيتهم من النساء المنتظرات المنفوشات الشعر اللواتي لم يتح لهن تصفيفه بعد، لشراء حاجاتهن.

و ما يجمل هذا المشهد الذي اعتاد عليه، طالبات الفتوة بلباسهن الخاكي الذي يضفي على جمالهن رونقاً مميزاً يبعث في النفس الانشراح وهن يعبرن زرافات ووحدانا في طريقهن إلى مدارسهن، و يترك انطباعاً بجمالية هذا الاختيار للباس الموحد، بينما الفتيان من أجيالهن يتمازحون، و تعلوا أصواتهم أحياناً في الحديث عن مسلسل تلفزيوني لفت انتباههم أو مباراة لكرة القدم أو أغنية جديدة حازت إعجابهم، و لا تتعدى ممازحتهم لزميلاتهم لحظة عين، أو ابتسامة رقيقة أو كلمة ودية عابرة، توشي حركة الحياة في الأزقة الضيقة لحي باب توما الأثري بلمسةٍ حانية في الصباحات الرمادية، التي تلونها الغيوم الهاربة أمام ريح الخريف الباردة ..

غذ خطاه باتجاه موقف الحافلة في " برج الروس " و لم يتوقف كعادته أمام محل " أبو صياح " ليتناول كأساً من السحلب الساخن الذي يشتهر به بعد أن توقف عن تحضير البوظة المميزة مع نهاية أيام الصيف الحارة، خشي أن يفوته اللقاء مع حبيبته التي لم تعرف بعد بوصوله ليلة أمس ..

أحس بشيء من التوتر و هو يقف تحت مظلة الانتظار المكتظة، موظفين و موظفات عاملين و عاملات طلاب وطالبات، ما إن تفرغ بعض راكبيها حتى تمتلئ من جديد، ونادراً ما كان يجد مقعداً فارغاً، فيضطر إلى الوقوف منحشراً مع الآخرين في الممر الضيق.الذين يضطرون لذلك خشية تأخرهم عن دوامهم.. أيام قليلة و تنتهي معاناة الانتظار على هذا الموقف و الانحشار مع الآخرين فقد وعد من مسؤوله الحزبي بفرز سيارة خاصة له، بعد تفرغه للعمل الطلابي وتسلمه موقعاً قيادياً لكفاءته و دوره النشط بإنهاض الحركة الطلابية وتعزيز دورها على الصعيدين الوطني والقومي.

وهذا ما كان مدعاة لاطمئنانه.

www.alkottob.com

مرت الدقائق ببطء ثقيل، و هو يقف منتظراً يمسح الشارع الطويل بعينيه لعله يلمح قدومها من بعيد، بوجهها البهي كوردة شامية اغتسلت لتوها بالندى الليلي.. أي لهفة تلك التي تحرق جوانحه شوقاً للقائها؟ لقد استعجل قدومه فهي لم تتخلف عن موعدها المعتاد بعد.. لماذا سميت هذه الساحة "برج الروس " ؟ كثيراً ما سأل عن سبب التسمية وكانت إجابات مختلفة، ولكن يبدو أن أصدقها من قال له، بأن هولاكو المغولي سفح الكثير من دم رجالها و نصب هرماً من رؤوسهم في هذا الموقع، لمقاومتهم الباسلة لعدوانه و احتلاله لمدينتهم .

من الأنسب أن يغير اسمه.. ليسمونه بموقف الأميرة أو الملكة هذه صفة أجمل وأحلى.. ماذا لو قدم اقتراحا بذلك لمن يهمه الأمر ؟ هذا سخف، فمن المستحيل أن تلغي واقعة أليمة من الذاكرة الشعبية، أجيال كثيرة تعاقبت على مدى قرون طويلة تختزن هول واقعة تاريخية نفذها سفاح متعطش للقتل و التدمير.. ما الذي دفعه مع جموعه المتوحشة لقطع كل تلك المسافات الشاسعة على ظهور خيلهم إلى هذه المنطقة التي احتضنت الحضارات الإنسانية ليعيثوا فيها فسادا وخرابا؟ قيل له: إن ياسمين دمشق لم يزهر و وردها لم يتفتح طيلة وجودهم القصير على أرضها، كلعنة الاهية على فسق السلاطين وانحرافهم قد تكون أسطورة تروى ولكن دلالاتها عميقة.. لم يترك المغول على أرضها أي أثر غير اسم هذه الساحة الذي يذكر بدمويتهم ..

دب القلق في قلبه.. ليس من عادتها أن تتأخر عن جامعتها، فهي حريصة لا تفوت موعد محاضرة لها.. لم يبق أحد تحت مظلة الانتظار سواه، والحافلات تأتي نصف فارغة وقد أتعبه الوقوف لساعة أو يزيد.. لا بد أنه ملفت للنظر، وبخاصة اولئك الذين يحتسون قهوتهم الصباحية على شرفات بيوتهم في البناء المقابل.

كلما ظهرت واحدة قادمة من بعيد ظنها هي، و لكن سرعان ما يخيب ظنه فتمضي عابرة في طريقها أو تستقل سيارة متوقفة بانتظارها، أو تصعد في حافلة الركاب الكبيرة الذاهبة إلى وسط المدينة.. هل يذهب إلى الكلية و ينتظرها هناك، وعندما تأتي ستعرج في طريقها إلى المقصف الجامعي كعادتها لتناول كوبٍ من الشاي وسندوشتا من الجبن، أو تشرب فنجانا من القهوة.. ليس من اللياقة أن يقف كل هذا الوقت كشرطي المرور، ليصعد إلى الناقلة القادمة و ينتظرها في المقصف لعلها تكون هناك بانتظاره تحجز الطاولة في الركن المشرف على أشجار الحديقة قبل أن يشغلها زملاء آخرون ..

www.alkottob.com

في لحظات ما يفقد السيطرة على نفسه، فما أن لمحها تجلس شاردة على الطاولة المعتادة، وهو يدخل من باب المقصف حتى كاد يتعثر بأكثر من كرسي في طريقه، إلا أن ضجيج الطلبة في الصالة الواسعة أخفى صوت ارتطامه، و لم يتمالك نفسه و هي تقف لتصافحه بابتسامتها الساحرة فضغط على أناملها الناعمة كزهر الياسمين الشامي، و قبلها على وجنتيها دون أن يعي إحراجها أمام أعين زملائها و زميلاتها المندهشة من جرأته المفرطة، ولم يلق بالاً للتعليقات الودودة التي سمع بعضها و هو يقول لها :

_ اشتقت لك كثيراً.. كيفك أنت، لا أتحمل الغياب عنك..

لوَّن الخجل وجنتيها بحمرة الورد وقالت وهي تحاول أن تتمالك نفسها ..

_ امسك نفسك، الكل ينظر إلينا، أنا مشتاقة أكثر .

_ لم أستطع ضبط عواطفي.. لا يهمني إلا أنت..

_ كل يوم أجلس على نفس الطاولة، و أفضل أن أكون وحيدة، أحاول أن أشغل نفسي بتبييض المحاضرات، و لكني حقيقة في مكان آخر ..

_ لم تغيبي عن ذهني يوماً أنت معي دائماً ..

_ وصلتني بطاقتك أمس، كم أفرحتني كلماتها، لا أعرف سر ذاك الحنين العاصف إليك طيلة غيابك ..

_ صدقيني أحياناً أسأل نفسي هل هناك من أحب مثلي، أنت عالمي كله، من خلالك أراه ..

ضحكت :

_ ليس إلى هذا الحد، أحيانا أراك شاعرا مشحونا بالعواطف، و أحيانا طفلا مفعما بالحيوية و اللامبالاة، و أحيانا أخرى مناضلاً منفياً تشغله السياسة عن كل شيء ..

_ إلا عنك

_ كان أسبوعاً قاسياً عانيت كثيراً من أجلك..

_ ما الذي حدث أخبريني..؟

_ تحدثت أمي بموضوع خطبتنا مع أبي الذي رفض الأمر بشدة و صرخ بوجهها كيف أقبل خطيباً لابنتي لا أعرف عنه شيئاً، و تتالت أسئلته الغاضبة،

www.alkottob.com

كيف تعرف عليها.. ماذا يعمل ؟ من أي بلد هو ؟ ما هو وضعه المادي ؟ و عندما أجابته أمي بأنه موظف يحمل شهادة جامعية و وضعه المادي لا بأس به.. أقام الدنيا و أقعدها على رأسها.. و هل تقبلي بتزويج ابنتك لموظف دخله لا يكفي لشراء فساتينها ؟ ألن تفكري أن تنزعي هذه الفكرة من رأسها ؟ لو لم تكن موافقة لما بحثت معي هذا الأمر.. ما زالت طفلة لا تفهم ما هي الحياة.. انسي هذا الموضوع، لا اخطِّب ابنتي لموظف ..

نشف ريقه في حلقه و لاحظت شحوب وجهه و هي تتابع حديثها فاستدركت:

_ ماذا أصابك لم أكمل حديثي بعد.. البداية قاسية و لكن النهاية جميلة ..

كانت عبارتها الأخيرة كرافعة انتشلته من بئر عميقة .

_ أخفتني، حياتي كلها معلقة بك ..

_ ياه، كم تبالغ بحبك لي ..

_ أبالغ.. و هل قول الحقيقة مبالغة ؟

_ تصور، أسبوع كامل و أنت محور الحديث و والدي مصر على موقفه، و بالأمس تحديداً لم أجد أمامي إلا مصارحته بجرأة، لا أعرف كيف واتتني، كان يعرف أني موافقة فقط، و هذا لا يعني بالنسبة لأبي أن يغير رأيه، أخواني و أخواتي يعرفون إصراري على اختياري، و لكن أحداً لم يجرؤ أن يفاتحه بذلك ..

فقلت له : أبي أرجوك إنه يعجبني و لن أتزوج غيره..

لا احب أن أذكر تلك اللحظة، استشاط غضباً و كاد أن يصفعني، و هو الذي لم يرفع يده مرة عليَّ في حياته، كنت المدللة لديه، لا أدري كيف تمالك أعصابه و صمت و الكل ينظر إليه، و أنا مستكينة بلا حراك مسمّرة في مقعدي، لحظات هائلة من التوجس و الترقب و أمي تضع يدها على قلبها، لو تعرف كم كانت فرحتي عظيمة، عندما ارتاحت أساريره و قال لي.. إذا كنت تحبينه إلى هذا الحد مبروك عليك، لا خيار لي..

قفزت من مكاني و طوقته و قبلته، و قلت له.. بدون موافقتك لا أتزوج أبداً يا أبي ..

ربت على كتفي و قال لي، مبروك يا ابنتي، أخبريه أن يشرف لبيتنا ..

كاد يقفز من فرحه و يحتضنها و يقبلها إلا أنه منع نفسه من تصرف طائش

www.alkottob.com

أمام الآخرين، و ضرب بيده على الطاولة ..

_ اليوم مساء سأكون عندكم، لا بد أني سأنال رضاه ..

ضحكت من أعماقها و قالت :

_ اعرف أنك محدث لبق، و شخصيتك قوية، و لكن لا أعرف كيف ستجيبه عندما يسألك عن راتبك و شهادتك، و هل لديك بيت ..؟ و عن أهلك، و وضعهم المادي و العائلي ..

_ لا تخش شيئاً، أعرف كيف أقنعه بوضعي ..

_ سيطلب منك أن تأتي مع أهلك يوم الخطوبة ..

_ سأخبرهم اليوم ما رأيك أن نحدد يوم الأحد القادم ..

انسابت ابتسامتها العذبة في حنايا قلبه و تناول الكيس المخملي من جيبه و قدمه لها حلت خيطه المضموم و دهشت و هي ترى الدبلتين الذهبيتين، مع العقد و السوار الفضي..

و قالت ضاحكة :

_ أنت في عجلة دائما، ما أروعك.. شكراً لهديتك الرائعة، تستعجل الأمور و كأني سأطير من بين يديك ..

_ لو كان الأمر بيدي لخطفتك، و طرت بك لأي مكان في العالم غير آبه بأحد ..

_ حفلة الخطوبة تحتاج للتحضير، فستاني وحده يحتاج لأسبوعين على أقل تقدير عند الخياطة، لا يهم تحديد موعد الحفلة المهم موافقة والدي مجرد موافقته تعني أننا أصبحنا خطيبين ..

_ كما ترين يا أميرتي، اليوم مساء ساكون ضيفكم ..

_ لا تنس أن تأتي بلباسك الرسمي، والدي تهمه المظاهر و خاصة في مثل هذه المناسبة ..

_ بالطبع و لكني لا أستطيع أن أتصنع التمثيل سأكون على سجيتي ..

_ هذا ما يسحر بشخصيتك، و أنا واثقة أنك ستنال رضاه .

_ رغم ارتيابي من الموقف لا تخافي عليَّ..

قاطعته و هو في قمة نشوته :

www.alkottob.com

_ لم تحدثني عن رحلتك في القاهرة.. لا تنسى التفاصيل حتى الصغيرة منها ..

_ عندما أراك أنسى نفسي أذوب في عيبيك أتحول إلى بسمة على ثغرك..

_ ياه، أنت رومانسي دائماً ..

لا أدري ماذا يحدث لي عندما أراكِ كأني في حلم جميل لا أريده أن ينتهي..

_ لا تشبع غروري كثيراً فأنا مغرورة بالأصل ..

_ كبرياؤك يزيدك جمالاً و ألقاً، كوني كما تكونين فأنت أميرة استثنائية، أحياناً أتخيلك ملاكاً ترك جناحيه في السماء، و هبط على الأرض، أو حورية هجرت البحر.ألا ترين الكل ينظر إليك بدهشة، و لا شك يحسدونني على مجرد الجلوس معك ..

ملأ الزهو قلبها فهذا الذي يراه الآخرون جاداً منشغلاً بالأمور السياسية، يفيض قلبه بالحنان و الحب و الشفافية المبهرة، و الأقدار بعثته إليها لأنه يستحقها شردت قليلاً و هي تستعيد كلماته و استدركت :

_ نسيت أن تحدثني عن رحلتك ..

_ كانت رحلة موفقة حصلنا على اعتراف اتحاد الشباب العربي بمنظمتنا، و هذا إنجاز كبير، و القاهرة مدينة ساحرة تختزل الحضارات كلها، و أناسها طيبون قضيت وقتاً ممتعاً مع زملائي لو كنت معي لكانت أجمل و أحلى ..

_ اشتاق لزيارة مصر ..

_ سنزورها معاً إنشاء الله في الصيف القادم، سأقوم بمهمة و لن أذهب بدونك .

نظرت إلى ساعتها و قد قاربت العاشرة ..

_ فاتتني المحاضرة الأولى و هي درس نظري لا بأس، عليّ أن أدرك حصة العملي.. لا يتسامحون بالغياب عنها ..

و حملت كتبها و مريولها الأبيض و رافقها حتى باب المختبر.. و قال لها مودعاً ..

_ البسي فستانك الأزرق مساء، أحبه عليك كثيراً ..

انتشل نفسه من غيبوبة الحب، و انتقل إلى حيث يجب أن يكون ليحدث عن

www.alkottob.com

النصر الذي حققته منظمته الطلابية وليفرح بالانتصار الذي تحقق على صعيد عواطفه .

***

www.alkottob.com

رن جرس الهاتف في مكتبه، رفع السماعة فأخبره عامل التليفون بمخابرة خارجية، كان المتحدث على الخط الآخر زميله مازن في قيادة الاتحاد الذي أعلمه بموعد وصوله إلى دمشق قادما من بيروت في السادسة مساء.. رد عليه مرحباً به بحرارة و أنه سيكون بانتظاره في المحطة.. فهو لا يعرف دمشق هي زيارته الأولى لها، و هذا ما يرتب عليه مرافقته طيلة الأيام الثلاثة التي سيقضيها معه قبل سفرهما معا في جولة نقابية على فروع الاتحاد في تركيا و إيطاليا و الباكستان و التي قد تستمر لعشرين يوما أو يزيد..

كم يود لو يلغي سفره، فلم يمر على خطبته إلا أسبوع واحد و هو في أسعد أيامه.. أيبحث عن عذر كاذب و يتخلى عن مهمته.. إنها فترة طويلة كيف يتحمل كل هذا الغياب عن حبيبته؟ ليس لديه مبرر مقنع لرفاقه لتأجيل الجولة، فقد أبلغ الجميع بمواعيد وصولهم و أي اعتذار سيفهم تنصلاً من مسؤولياته، و هو لا يسمح لنفسه أن يسجل عليه أي تقصير، أو تهاون في أداء واجباته، لو يستطيع أن يصطحبها معه،و لكن هذا أمر غير وارد الآن.. لن تكون مسرورة حتماً بأن يغيب عنها مدة طويلة، كان عليه أن يخبرها بذلك فور عودته من القاهرة لتتقبل الأمر بسهولة.. كيف لها نسيانه.. ربما لا تدري أنها تملأ حياته كلها.. أحياناً ينسى نفسه ..

لا بأس فاليوم يصطحبها لأول مرة ليسهرا معاً بعد أن استأذن والدها الذي كسب ثقته و نال إعجابه، و موافقته رغم تحفظه على وضعه المادي، و كان يوم خطوبته من أجمل أيام حياته رغم تعذر قدوم والديه، و حضور اخواته.. إنه يوم لا ينسى ..

نهض عن مكتبه، اتكأ على حافة النافذة، كان سرب من طيور الدوري يحط على الشجرة المقابلة، و غيوم تشرين تعبر بتثاقل تاركة رذاذاً خفيفاً تحمله نسمات رقيقة تنعش وجهه ..

نظر إلى سيارة البيجو التي سلمه مفاتيحها أمس مسؤوله الحزبي حسن الذي قدر له صنيعه و شعر نحوه بالعرفان، و أن كان من حقه أن توضع بتصرفه سيارة خاصة، فتحركه الميداني يتطلب ذلك.. و لكن السؤال الذي بقي يحيره حول رفيقه المسؤول.. لماذا يهتم بالمظاهر و لا يتحرك من مكتبه إلا بسيارته الفخمة و

www.alkottob.com

شلة من المرافقين تتبعه في سيارة اللاندروفر، و هو لا يهدده أحد و هو منفي مثله التجأ إلى دمشق فاحتضنته، كما احتضنت الكثيرين من العرب الذين حملوا معهم أحلاماً كبيرة.. يومها لم يكن يملك ثمن حذاء لتغيير حذاءه المثقوب،وكأنه من مخلفات الحرب العالمية الثانية.. هو لا يشك بإخلاصه و تفانيه بالعمل، هكذا يبدو له على الأقل و لكنه يلحظ تغييراً في سلوكه، كثيراً ما دافع عنه أمام الذين يتهمونه بعدم النزاهة و التضليل.. المظاهر وحدها لا تكفي للحكم على الآخرين.. لا يستطيع أن يتشبه بمن يماثله في الموقع من رفاقه السوريين فهذا بلدهم، و لهم الحق بالتصرف، و إن كان ما يراه في الحدود الدنيا لدى ما للآخرين في أقطار أخرى.. إذا حسب راتب أحدهم و هو في أعلى موقع في السلطة لا يساوي راتب مدير مدرسة ابتدائية في أي بلد آخر..

كان عليه أن لا يحاول تقليدهم ليكون قوة لرفاقه الذين ضحوا بالكثير من أجل مبادئهم، و مازالوا صامدين رغم ما يتعرضون له من قمع و ملاحقة و حرمان، كثير منهم حرم من العمل في المؤسسات العامة و الخاصة، لا يجد بعضهم أحياناً ثمن ربطة خبز لأطفالهم، لا .. عليه أن يكتفي بسيارة واحدة، و لا حاجة للسيارات الثلاثة لترافقه من بيته للمكتب، و من المكتب إلى البيت، أو إلى دعوة في مطعم أو رحلة صيد صحراوية. نادراً ما كان يعود بأرنب دهمته عجلات سيارته، أو بضعة عصافير صغيرة نخرت أجنحتها خرادق بندقيته الروسية الثمينة .

قال له يوماً لا هم ما يصطاد المهم أن يمارس رياضة الصيد .

وافقه على ذلك، و إن كان الأمر قد اختلط عليه.. لماذا يتسرب الشك إليه في طبيعة سلوكه.. لم يذكر أنه رفض له طلباً أو اقتراحاً لم يأخذ به.. يجب أن لا تتزعزع ثقته به ..

أخذ الجو يميل للبرودة، فأغلق النافذة، تحول الرذاذ إلى مطر خفيف، سالت قطراته على زجاجها بخطوط متعرجة، تساءل بسذاجة، لماذا لا تنحدر بخط مستقيم.. وجد تفسيراً بالغبار المتراكم على سطحها و الذي لم ينظفه أحد منذ أيام طويلة.. عاد للجلوس إلى مكتبه.. لماذا يفسد هذا اليوم الجميل الذي انتظره طويلاً للخروج مع حبيبته الليلة، و إن كان يتمنى لو كان وحدهما فقط، و لكنه مضطر لدعوة زميله و زوجته القادمين من بيروت فأصول الضيافة تفرض ذلك ..

www.alkottob.com

لم يكن اختياره لكازينو الوادي الأخضر في الربوة عبثاً، فمربعه الصيفي في الهواء الطلق كان يسمح له بالسهر مع أصدقائه وصديقاته دون أن يكلفهم الكثير ما دامت طلباتهم لا تجاوز زجاجة بيرة، وبعض صحون البزر والفستق، و تحت القبة المحبوكة من أعواد النخيل والقوص، يرقصون دون تعب، يثرثرون ويتمازحون حتى أواخر الليل، ويعودون إلى بيوتهم ليستغرقوا في أحلامهم الجميلة ..

أما هذه الليلة فالوضع مختلف، فهو يصطحب خطيبته معه لأول مرة و كم منى نفسه أن تكون ليلة لا تنسى.. قد لا يستطيع أن يبثها عبارات الغزل و الحب أمام صديقه و زوجته، و لكن عندما ينفردان في الرقص فسيهمس بأذنها ما لم تسمعه من قبل، و يبوح لها بما يحس.

هي لا تدرك أن عاصفة نارية تجتاح كيانه كلما التقى بها أو جلس معها.. لا تعرف أنها تحيله إلى شعلة ملتهبة لا تنطفئ.. أما الليلة فعليه أن يحافظ على وقاره.. لا يمكن أن يسمح لنفسه أن يبدو كطفل عاشق .

كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحاناً هادئة وهم يتحدثون بمواضيع مختلفة اجتماعية و سياسية و ثقافية، و أن تكن الحياة في دمشق أخذت الجانب الأهم فيها، فزوجة صديقه التي مازالت تدرس معه في الجامعة نفسها تمنت لو تستطيع أن تستقر في دمشق و تمضي حياتها كلها فيها.. قالت بحسرة أنها تفتقد هذه الأجواء الجميلة في مدينتها ..

شعرت أميرة باعتزاز و استرسلت في وصف معالم مدينتها الرائعة التي لا تضاهيها أية مدينة أخرى ..

كانت الأضواء الخافته تحجب وجوه الساهرين و بالكاد تظهر ملامحها، و أخذ الإيقاع يشتد مع الصوت الجميل لجوني سالم الذي بدأ بأغنية "خذني بعيداً " والضوء الساطع الذي سلط عليه عكس تعبيرات وجهه المعبرة عن استغراقه بمعاني عباراتها الجميلة، فدفعت بالعشاق والمحبين إلى حلبة الرقص التي غصت بالأجساد الهائمة، دعا خطيبته لمشاركته وقبل أن ينهض عن كرسيه سأله مازن باستغراب:

_ أليس هذا أبو النوف ..؟

نظر عاصم بتمعن نحو الحلبة فدهش وهو يرى أبو النوف نفسه يخاصر فتاة شقراء ممشوقة القوام بملامح أجنبية و أجاب بشيء من الذهول :

www.alkottob.com

_ إنه هو

_ أو ليس ذلك أبو ليلى الذي يرقص إلى جانبه..؟

_ بالتأكيد.. ليست هذه زوجته كأنها أخت الفتاة التي يراقصها أبو النوف..

كانت مفاجأة مازن كبيرة لم يصدق عينيه، و لم يكن قادراً على استيعاب هذا المشهد و قال :

_ كدت أشك بنظري، هل يعقل أن يشاركا في هذه الأجواء ..

رَدَّ عاصم محاولاً تخفيف انزعاجه :

_ ربما ضيفتان عليهما أو على منظمتهما يبدو أنهما بولونيتان ..

_ يا رجل هذان قائدان كبيران، لا يجوز أن يظهرا هكذا..

_ هذه حياتهما الخاصة، يعيشانها كما يشاءان ..

_ لا أستوعب ذلك، إن صورتهما مختلفة تماماً في ذهني..

_ و هل هما قديسان ..؟

_ ليس كذلك، ولكن موقعهما السياسي يفرض عليهما تجنب هذا السلوك ..

_ بحدود ما أعرف، يعتبران ذلك ممارسة حضارية ..

_ يا أخي نحن شرقيون عرب لا نتقبل مثل هذا السلوك لو كانت زوجتاهما معهما لاختلف الأمر ...

_ لعلهما يحاولان إمتاع ضيفتيهما القادمتين من أوربا، وهما بولونيتان بالتأكيد، لا تخيب فراستي ...

رَدَّت زوجة مازن معلقة :

_ تصرفهما غير مقبول، إني متفاجئة تماما ..

وعلقت خطيبته :

_ أنا مندهشة أيضاً، كنت أعتقد أنهما لا يعرفان إلا الرقص بالبندقية ..

لم يقوموا إلى الرقص.. تسمروا على طاولتهم وعيونهم معلقة نحو " أبو النوف" و هو يحتضن ضيفته ويدور بها مع صوت الموسيقى الحالمة، كان يهمس بإذنها مبتسماً بين مرة وأخرى، كعاشقين ولهين اضناهما الحب، واحرقتهما العواطف الملتهبة ..

www.alkottob.com

كانت خطيبته تتحرق للرقص إنها الليلة الأولى التي تخرج بها وحيدة معه، لم تتزعج من وجود ضيفه معه بل رأته لطيفاً و ودوداً و زوجته مثقفة و راقية، حاولت أن تداري امتعاضاً ممن كانت تظن أنه آخر من يتواجد في حلبة رقص.

لم تكن تعرفه و لا يهمها هذا الأمر كثيراً، و لكنها امتعضت من وجوده لإفساده جو سهرتهم، و خاصة ضيف خطيبها، الذي أعتذر بلطف و جامله خطيبها فلم يكرر دعوته لها للرقص ..

قالت مستنكرة موجهة حديثها إلى زوجة مازن :

_ أترين، انهما متناقضان، تفوقه طولاً بأكثر من ربع متر و تحني رأسها كثيراً لتسمع حديثه، هي شقراء و فاتنة لاشك، و لا أرى فيه أية جاذبية ..

أجابتها و هي تبتسم :

_ بالتأكيد جاءت من بولونيا و هي تحلم أن تتمنطق وتتقلد البندقية، لتشارك الثوار في عملياتهم أو على الأقل أخذ صورة معهم ..

_ أهي غبية إلى هذا الحد ..؟

رَدَّ مازن قبل زوجته:

_ لا بالعكس، كثيرات يضجرن من حياة المدنية الرتيبة يبحثن عن مغامرة خطرة تراود خيالهن، فكيف إذا كانت المغامرة مع ثوار يعيشون في الكهوف و الغابات و بين صخور الجبال و وديانها ..؟ بالنسبة لهن تبدو الحياة هكذا كالحلم..

علقت أميرة:

_ هاهي مغامراتهما إذن تنتهي في حلبة الرقص مع قائد في الثورة ..

قال عاصم :

_ ربما تكون ليلة عابرة.. ألا يحق له أن يريح أعصابه المتعبة.. لعله قدم من جولة متعبة في وديان الجنوب ..؟

رَدَّ مازن محتجاً :

_ أنت دائماً تجمّل و تبحث عن تبريرات غير مقنعة، على أية حال مزاحك مقبول ..

سكنت الموسيقى برهة فتوقف الراقصون و عادوا إلى مقاعدهم .

www.alkottob.com

دهش مازن و هو ينظر إلى " أبو النوف " و " أبو ليلى " و هما يجرعان كأسيهما من الويسكي حتى الثمالة و صوت ضحكهما يكاد يصل إلى آخر جالس في الصالة، و ضيفتاهما تبادلانهما الضحك أيضاً و لكن بصدى أقل.. غطت الموسيقى الصاخبة و أصوات الآلات النحاسية التي انطلقت بشدة لتخفي أي صوت آخر .

كانت موسيقى الجيرك الإيقاعية دفعت الشباب و الصبايا إلى الرقص في جنونها.. أحس عاصم بقدمي خطيبته تدق على الأرض شعر أنه من غير المناسب أن يبقوا جالسين هكذا فنهض و قال :

_ تفضلوا نرقص ..

رَدَّ مازن مبتسماً :

_ ما دام أبو النوف مرتاحاً، ليكن ..

رقصوا معاً.. كانت الإيقاعات كافية لضبط حركات مازن الذي لا يتقن الرقص جيداً.. والذي استدرك قائلاً وهو يتبع زوجته الأنيقة، لا تضحكوا عليَّ فلا أجيد الرقص وشجعه عاصم قائلاً.. ما عليك إلا أن تتحرك مع إيقاعات الطبل ..

لم تكد تنتهي الأغنية وتبدأ الأخرى، حتى كان أبو النوف وأبو ليلى وضيفتاهما ينضمون إلى حلبة الرقص من جديد، وما كان مثيراً إلى درجة حادة حمل أبو النوف لزجاجة الويسكي التي لم يتبق ربعها، توقف عاصم عن الرقص وأمسك يد خطيبته وعاد إلى الطاولة وتبعهما مازن و زوجته الذي قال قبل أن يجلس على مقعده:

_ يبدو أن " أبو النوف " سكران، يا رجل غير معقول، يحمل زجاجة الويسكي معه و يرقص ..!

_ ربما هو سعيد بضيفته إلى حد لم يعد يسيطر على نفسه ..

_ هذا غير لائق تماماً، ماذا يقول الساهرون ؟ جميعهم عائلات محترمة لا يقبلوا بهذا التصرف ..

_ قد يراه البعض أمراً عادياً ..

علقت خطيبته قائلة :

_ حمل معه زجاجة وسكي، هذه قلة ذوق و أدب ..

ردت زوجة مازن :

www.alkottob.com

_ عليه أن يحترم مشاعر الآخرين، ماذا يقول عنه الذين يعرفونه أو يسمعون باسمه ..؟

بدأ الراقصون بالانسحاب شيئاً فشيئاً، لم يتبق أحد في حلبة الرقص سوى القائدين وضيفتيهما.. كان واضحاً أن الأمر لا يعنيهم بشيء، وهم يتابعون الرقص، وكان انفرادهم بالحلبة ملفتاً للنظر، ربما تعجب البعض واستنكر آخرون، كانت نظرات

الكثيرين مسلطة عليهم وهم غير آبهين بأحد، لم يدركوا أن انسحاب الراقصين كان احتجاجاً على تصرفهم.. لا يعرف كيف يفسر الأمر لنفسه.. الرقص شيء جميل، أما حمل زجاجة الويسكي فخارج حدود الأدب.. ربما هو منتشٍ إلى درجة نسي فيها نفسه.

من حقه أن يعيش حياته كما يريد.. أدرك أن وجبة العشاء، تأخرت فطلب من النادل أن يحضرها، خرج مازن عن صمته وهو يراقب مشهد الراقصين وقال موجهاً حديثه لعاصم:

_ تصرفهما أهوج، لو كنت صاحب الكازينو لألقيت بهما خارجاً.

_ لا تزعج نفسك يا مازن اعتبرهما غير موجودين ..

_ كيف ذلك وجميع من في القاعة يراقبهما ؟

_ لعلهما يعتبران ذلك أمراً طبيعياً .

_ يبدو أن هذا يتفق مع رأيك بأنها ممارسة حضارية ..

_ لم أقل أن هذا رأيي، ولكن أعتقد أنهما يعتبرانه كذلك..

_ أنظر، لم يبق أحد في الحلبة، أليس انسحاب الجميع احتجاج واضح ؟

تدخلت خطيبته قائلة:

_ لا شك في ذلك شعرت بالحرج وهو يرقص إلى جانبنا وبيده زجاجة الويسكي.. تصرف غير لائق ومرفوض ..

ردت زوجة مازن :

_ ما زلت مذهولة حتى الآن، رغم أن أمرهما لا يعنيني..

قال عاصم :

_ لماذا نشغل أنفسنا بذلك، دعونا نتحدث بموضوع آخر.. لأحدثكم عن

www.alkottob.com

رحلتي إلى القاهرة ..

فقاطعه مازن :

_ هناك سؤال يحيرني، لماذا لا يصطحبان زوجتيهما معهما.

_ أبو النوف لم يتزوج بعد كما أعتقد، لعله يريد أن يختار شريكته البولونية زوجة المستقبل ..

_ ومن قال أنه غير متزوج ؟

_ هكذا سمعت ..

_ لا، أعرف أنه متزوج.. وحتى لو كان أعزباً لا يجوز له هذا التصرف..

_ إنك تقسو عليه، هذه حياته ليعشها كما يشاء ..

_ يا رجل، أحياناً لا أفهمك ربما أنت تسخر..

_ أنا منزعج مثلك ولكن علينا أن لا نضيع سهرتنا بهذا الموضوع .

_ هكذا، لا بأس ..

فرغت زجاجة البيرة وجاء النادل بغيرها مع وجبات العشاء، وغادر بعض الساهرين، لم تتوقف الموسيقى الصاخبة والمغني جوني ازداد انسجاماً مع إيقاعات الغيتار ونغمات الآلات النحاسية، والراقصون المنفردون بالحلبة يواصلون اهتزازهم دون تعب أو كلل، ساعة ونصف الساعة، هكذا حسبها مازن.. دون أن يرتاحوا ولو لدقيقة واحدة.. وكان الوقت قد قارب الواحدة ليلاً فنهضوا مغادرين وشيء من الأسى في قلوبهم.. وعلى طاولة منزوية قريبة من الباب كان يجلس ثلاثة شبان بأسلحتهم الفردية يراقبون حركات الداخلين والخارجين، وعيونهم اللامعة كقطط الليل ترصد المكان بحذر وتوثب ..

في صباح اليوم التالي اصطحب عاصم زميله مازن إلى مكتبه، احتسيا القهوة وتحدثا بأمور مختلفة، وقبل أن يهما بالمغادرة باكراً لقطع تذاكر السفر والتحضير لجولتهم الطويلة، دخل حاجب المكتب ليعلمه بموعد تشييع أحد شهداء المقاومة الذي سقط بشظية قنبلة في الجنوب، فاستأذن من مازن لمرافقته لتمثيل منظمتهم الطلابية إلى جانب القوى والمنظمات الأخرى .

كان في مقدمة الموكب أبو النوف وأبو ليلى وآخرون وعندما ووري جثمان الشهيد انطلقت الأعيرة النارية تحية له، وارتجل القائد أبو النوف كلمة حماسية معبرة مشيداً بخصائل الشهيد البطل وسجاياه الحميدة، و بذله لحياته في سبيل

www.alkottob.com

تحرير وطنه، وإقامة دولته المستقلة، وبين الجموع الكبيرة المحتشدة كان هناك من يذرف دمعاً، وفي مؤخرتهم وقفت امرأة على جانب الطريق تحمل طفلها إلى حضنها ويحيط بها أطفالها الآخرون الذين لم يتجاوز أكبرهم الخامسة عشرة بعد.

كانت دموعها تتساقط من عينيها بحرقة وألم وأطفالها غارقون في المشهد يتشبثون بثوبها الباهت، وهم يستمعون للصوت المجلجل الذي ملأ المكان عبر مكبرات الصوت العالية..

أمسك عاصم بيد مازن وانسلا خارجين من المكان، ولم يعلق في ذهنه شيء سوى مشهد تلك المرأة وأطفالها الواجمين..

***

www.alkottob.com

أقلعت الطائرة من مطار كراتشي في العاشرة صباحاً، كانت الشمس مشرقة تتسلل عبر نوافذ الطائرة المزدحمة بالركاب، جلهم من شريحة اجتماعية واحدة، عمال عائدون من إجازاتهم إلى بلدان الخليج، وأسمالهم المتشابهة الفضفاضة تبدو في غالبيتها لم تر الغسيل من فترة طويلة، ورائحة عرقهم الممتزجة برائحة البهارات القوية المنبعثة من خزائن الطعام في مقدمة الطائرة تزكم الأنوف ..

تأفف عاصم في مقعده وأحس بالضيق، وألتفت نحو زميله مازن قائلاً :

_ نصحتك أن نختار غير هذه الطائرة.. ولم تستمع ..

قال مازن وهو يبتسم :

_ وما الذي يزعجك فيها ؟

_ أتعجبك هذه الرفقة، وهذه الرائحة النفاذة ؟؟

_ كنت واهماً، لم أتخيل الوضع هكذا ..

_ لو حجزنا بإحدى طائرات الخليج لكان الوضع أفضل بكثير..

_ لا أدري من أين علقت بذهني كفاءة الطيران الباكستاني.

_ فكرتك هذه عقوبة، علينا أن نتحملها لساعتين متواصلتين.. أتشم هذه الرائحة ؟ أكاد أصاب بالغثيان ..

سقط كيس من الأمتعة لم يأخذ مكانه جيداً من الرف بينهما، ولحسن حظهما لم يكن فيه متاع صلب، والطائرة مازالت ترتفع و الأحزمة مربوطة..

حمله مازن وألقى به في الممر إلى جانبه، دون أن يتحرك أحد لإعادته إلى مكانه ..

ضحكا معاً و قال عاصم :

_ هذا ما كان ينقصنا ..

إستوت الطائرة في مسارها وتحدث الكابتن مرحباً وطلب فك الأحزمة، بينما بدأت المضيفات يقدّمن الحلوى، وابتسامتهن الخجولة تدفع الطمأنينة في قلوب المسافرين، قال مازن وهو يفك عقدة ربطته عن ياقته :

www.alkottob.com

_ أتعرف؟ كلما تذكرت اجتماع أمس مع الطلبة أصاب بالفزع .

_ الغريب، كنا نتوقع أن لا يتجاوز عدد الحضور أربعين زميلاً من أين حضر هذا العدد الكبير الذي تجاوز المائة ..

_ ليس الأمر عفوياً، حضروا لتخريب المؤتمر، ومن الواضح أنهم خططوا لذلك ..

_ لولا شجاعة زملائنا لكنا الآن في المستشفى ..

_ كان وضعنا حرجاً، والغريب أنهم لا يتقبلون أي حوار أو مناقشة، لا يفقهون شيئاً في العمل النقابي ..

_ معظمهم موفودون على حساب الحكومة، كيف يتقبلون قيام فرع لاتحادنا في ساحة يعتبرونها ساحتهم ..؟

_ كان زملاؤنا في غاية الروعة، تصدوا لهم ببسالة رغم كثرتهم وأفشلوا مخططهم ..

_ كانت أعصابنا هادئة إلى حد مدهش، لا أدري كيف ضبطت نفسي إلى هذا الحد، بعد أن قذفونا بأبشع السباب، وسحب بعضهم السكاكين وهم يهجمون علينا ..

_ ربما تفاجأوا بموقف زملائنا العنيد وتصديهم الحاسم لهم ولذلك تراجعوا مرغمين، كان نواف الفايز شهماً أقسم أن يطلق النار على من يحاول مسنا ..

_ إنها تجربة مرة لم نتعرض لها في أي مكان آخر..

_ المهم أنهم خرجوا من القاعة، وتابعنا أعمال المؤتمر بنجاح .

_ نحمد الله لم تنشب معركة، لو جرح البعض لتفجرت عشائرياً في الأردن .

_ بتقديري هذا ما حسبوه، وإلا لما انسحبوا في النهاية..

_ من أين حصل نواف على مسدس، تفاجأت أنه يخفيه تحت معطفه.

_ مسألة ليست صعبة يمكنه شراءه، فالتهريب موجود في كل مكان ..

_ على كل الحمد الله انتهت على خير ..

_ هل أعجبتك لاهور؟

_ اقتراحك خاطئ من الأساس، لو بدأنا بزيارتها أولاً وأكملنا جولتنا في إيطاليا وإسبانيا لقد أنستنا ليلة أمس حلاوة الأيام التي قضيناها هناك ..

www.alkottob.com

_ يا أخي عالم مختلف، إنسى لاهور ومن فيها .

_ المطعم الصيني أكله لذيذ، والأواني الفضية التي اشتريتها جميلة ومتقنة الصنع، وكذلك الساري الحريري نقوشه رائعة ..

_ إذن تذكر الأشياء الجميلة التي شاهدتها وإنسى السيئة..

_ المهم انتهت جولتنا بسلام، كانت جولة ناجحة.

كان اهتزاز الطائرة غير ملحوظ في الدقائق الثلاثين بعد إقلاعها وكانت الغيوم المنخفضة تعكس أشعة الشمس الساطعة والطائرة تعبر فوقها، و فجأة أصبح الاهتزاز ملحوظاً وأخذت بعض الغيوم الداكنة تحجب نور الشمس من نوافذ الطائرة، ولم يتأخر الكابتن بطلب ربط الأحزمة وعدم التحرك عن المقاعد لأي سبب كان، وأطفئت الأنوار داخل الطائرة وسكنت حركة الجميع ولم تعد تسمع إلا أصوات أنفاسهم.. نظر عاصم إلى مازن وقال وهو يربط حزام المقعد:

_ يبدو أن الطائرة تواجه مشكلة ما .

_ ألا ترى نحن نعبر كتلة غيوم كثيفة ..

_ ولكننا على ارتفاع 35 ألف قدم كما صرح الطيار.

_ إنها غيوم كثيفة كما ترى .

ازداد اهتزاز الطائرة مع مرور الدقائق وارتجت ارتجاجاً عنيفاً، وهي تعبر كتلة غيوم كثيفة أحالت السماء في الخارج إلى ليل قاتم السواد، ولم يعد عاصم يرى ملامح الوجوه القريبة التي سيطر عليها خوف رهيب والطائرة تحاول جاهدة عبور مسارها وسمع مازن يقول إلى جانبه:

_ يا الله الطائرة في خطر .

أجابه وهو لا يقوى على الكلام :

_ يا الله، نحن في خضم عاصفة .

مرت الدقائق بطيئة ثقيلة مرعبة، ومالت الطائرة على جانبها الأيمن إلى حد تخيل أنها ستنقلب على ظهرها، واستعادت توازنها المضطرب لتنقلب على جانبها الأيسر وهي تترجرج بعنف سقطت الأمتعة عن الرفوف وتدحرج بعضها بين المقاعد والممرات دون أن يتحرك أحد، الكل يتشبث بمقعده، الخوف الرهيب من نهاية كارثيه، كانت لحظات مرعبة لا يمكن وصفها بكلمات مجردة، وأخذ عاصم يتمتم بينه وبين نفسه بصلاة ما زال يذكرها من طفولته، وكذلك فعل زميله مازن..

www.alkottob.com

خيم صمت شامل لا يسمع فيه سوى هدير محركات الطائرة التي تغالب العاصفة، والظلام الدامس الذي يلفها. لم يعد مكان لأي حديث.. عبرت الصور في مخيلته.. تذكر خطيبته التي تنتظر قدومه بشوق ولهفة، عيناها الجميلتان وضحكاتها المنعشة للقلب.. تذكر أهله وأصدقاءه ..

ودمشق الحالمة على بردى و صوراً كثيرة أخرى أمامه وهو يتابع صلاته الصامتة للوصول بسلام على الأرض ..

ساعة كاملة من الرعب سيطرت على جميع المسافرين، وشيئاً فشيئاً بدأت الارتجاجات تخف وأخذت الغيوم تنزاح قليلاً سامحة للنور أن ينفذ عبر النوافذ المغطاة برذاذ المطر المتثلج، نظر إلى الوجوه المصفرة كورق التين المتساقط في الخريف، كان الهلع قد أصاب البعض إلى حد الإغماء.. شكر الله في سريرته وأحس ببعض الاطمئنان ومال إلى مازن قائلاً :

_ يبدو أننا نجونا من العاصفة .

_ إنشاء الله تكمل على خير..

_ لقد خفت حدتها والطائرة تسير مستوية رغم بعض الاهتزازات الخفيفة..

_ إنها ساعة مرعبة يا عاصم ..

_ مرعبة إنه وصف بسيط لما جرى ..

_ ألا تلاحظ أن أحداً لم يتحرك من مكانه ؟

يبدو أن الوضع لم يستقر بعد.. حتى المضيفات لم تتركن مقاعدهن، والطيار لم ينبس بكلمة ..

بدأت الطائرة تهبط تدريجياً من علوها الشاهق، نظر من النافذة إلى الغيوم المتناثرة التي خفت كثافتها، ولونها الأبيض بدد بعض قلقه .

فقال محاولاً أن يرسم بسمة على وجهه :

_ أعتقد أننا اقتربنا من المطار.. ألا تلاحظ الطائرة تواصل هبوطها ؟

رد مازن وهو يغالب خوفه :

_ إنها تهبط ربما تجاوزت الخطر ..

عندما حطت الطائرة على أرض مطار المنامة وكرجت عجلاتها، تعانق الكثيرون وتبدلت ألوان وجوههم الشاحبة، وما أن توقفت في مكانها، حتى طغى

www.alkottob.com

الفرح على الجميع، وقائد الطائرة يهنئ الجميع بسلامة الوصول بعد رحلة اعتبرها من أصعب رحلات شركة الخطوط الباكستانية .

***

www.alkottob.com

لا يعرف مبعث ذلك السحر الغامض الذي يغير مزاجه وينسيه كآبته التي تعصف به أحياناً، كلما أحس بوحدته وثقلت عليه آلام غربته، ويبعث في نفسه فرحاً جميلاً يطغى على أي شيء آخر.. أتمتلك خطيبته قدرات خارقة على تحويل عالمه المثقل بشجون عمله واغترابه إلى أمل دائم وسعادة غامرة..؟

كلما التقاها أو سمع صوتها، سحر جارف يتسرب إلى كيانه فيحيله إلى عاصفة من الحب والاشتياق.. كم كان حزيناً وهو يغادر صالة مطار دمشق عائداً إلى بيته.. لا أحد هناك في انتظاره، وهو يرقب كثيراً من القادمين معه يتقبلون الزهور من أقاربهم أو أحبائهم، وهم يستقبلونهم بالعناق والقبلات والضحكات العالية.. انسل وحيداً من بينهم وغصة جارحة تحرقه.. لم يتسن له أن يخبرها بموعد قدومه، ولم يتحمل أن يقضي الليل دون أن يراها رغم تعب الرحلة الطويلة، وهاهي أمامه تملأ عالمه كله.. كادت تطير من فرحتها وهي تفتح الباب لتفاجأ به بعد أكثر من عشرين يوماً على غيابه تصرفت بعفوية دون أن تخشى حساباً لأحد، فعانقته بحرارة دافقة وهي ما تزال في قميص نومها وروبها الملقى على كتفيها.. كم هي مبهرة وساحرة، كيفما كانت جميلة ورائعة ومدهشة، لم تغير ثيابها وكأنها تخشى أن تهرب منها بضع دقائق بعيدة عنه..

حدثها عن جولته وهي تستمع بشغف، طالبة حتى بالتفاصيل الصغيرة وكيف يلم بأوصاف المدن التي زارها.. روما بيروجيا بولونيا مدريد فلنسيا إشبيلية غرناطة كراتشي لاهور.. تريد أن تعرف كل شيء لعلها تريد أن تنسى حرقة انتظار الأيام الطويلة التي كانت تنتظر فيها إيابه ..

لا شيء خفف من معاناتها سوى بطاقاته التي أرسلها وجمعتها في محفظتها الأنيقة لتقرأها قبل أن تنام مع صلاتها ودعائها بعودته سالماً إليها.. لم يحدثها عن معاناته ورعبه، والطائرة وسط العاصفة في طريق العودة، وكأنه نسي الأمر تماما، أو كأنه حلم مفزع تلاشى من ذاكرته لحظة طلتها عليه.. أيقن أن صلواتها استجيبت، لقد حماه الله وحمى الآخرين معه من رحلة الرعب تلك.. هناك أمور لا يمكن تفسيرها وأسرار لا يمكن فهم كنهها.. كله مناط بإرادة إلهية لا حد لإطلاقها.. ما أسمى هذه الأم التي تركتهما وحيدين معاً وهي تدعو له بالتوفيق، كأن هالة قدسية تحيط وجهها البهي الذي ما زال محافظاً على نضارته، رغم

www.alkottob.com

بعض ما تركه الزمن في ثناياه.. هل هو محظوظ إلى هذا الحد ؟ بالتأكيد فحبيبته التي لا مثيل لها تساوي عالماً بأكمله ..

تجاوز إشارة المرور الحمراء دون انتباه منه، ولم يسمع صفارة الشرطي الغاضب، أحياناً ينسى الإنسان نفسه ويتحرك بلا إرادة، كاد أن يعبر شارعاً آخر في غير اتجاه مكتبه..

لابأس كل الطرق توصله إلى مبتغاه.. الصالحية، الفرنسيسكان، القصر الجمهوري، نادي الضباط، ساحة الأمويين، أوتوستراد المزة، لكثرة ما عبر هذا المسار ألم بتفاصيله الصغيرة واختزنت ذاكرته أشكال الأبنية القديمة والجديدة والأشجار الباسقة المنتصبة من سنين طويلة على ضفاف بردى، الذي خف جريانه فانحباس المطر عنه طوال أشهر الصيف والخريف الطويلة، ونضح مياهه لإرواء البساتين والحقول، جعلته يبدو كساقية صغيرة لعل هذا العام يشهد مطراً غزيراً فيعيد له بعض نضارته المفقودة ..

غمره شعور بالرضا وإحساس بالراحة وهو يرشف فنجان قهوته الصباحية، على مكتبه، لا يعرف سبباً لقدومه باكراً هذا اليوم على غير عادته، لم يصل أحد غير آذن المكتب الطيب الذي لم يفرغ من مسح الغبار بعد، هنأه بحرارة بسلامة العودة وعبر له عن ضيقه لتغيبه الطويل..

_ لماذا يا أبو أحمد الشباب طيبون، هل أزعجك أحد ؟

_ يا أستاذ لم أذهب إلى بيتي يوماً مرتاحاً، السيد حسن يتعامل معي بخشونة وفظاظة، كدت أعوف العمل لولا لقمة الأولاد ..

_ لعلك قصرت في عملك، أو تلكأت في طلباته ..

_ لا و الله لم أقصر بشيء، في الأيام الأخيرة بدا نزقاً ويصب جام غضبه علي دون سبب، لا أدري كيف أتعامل معه..

_ طوّل بالك يا أبو أحمد ، لعله متضايق من شيء وأعصابه متوترة ..

_ يا أستاذ ما علاقتي بالموضوع ؟ علي أن أقدم الشاي والقهوة وأنظف المكاتب، صدقني حتى جدران مكتبه أمسحها كل يوم على ما تطول يدي ..

_ لا تأخذ على بالك يا أبو أحمد، سأفهم منه إن كان هناك سبب لهذه المعاملة ..

_ لم أعد أحتمل يا أستاذ، لأتفه سبب يصرخ في وجهي وكأني ولد صغير،

www.alkottob.com

وأنت تعرف أني تجاوزت الخمسين ..

_ الدنيا بحاجة للصبر يا أبو أحمد، خفف عن حالك .. سأحاول قدر الإمكان معه لتغيير معاملته لك ..

_ يلعن الحاجة يا أستاذ ، بتذل ..

_ هدئ أعصابك يا أبو أحمد كل شيء يتغيير ..

_ يعطيك العافية ياأستاذ يا ليت كلهم مثلك ..

_ الله يعافيك ..

حمل أبو أحمد صينية القهوة وخرج، فيما أخذ عاصم بضعة أوراق بيضاء من درجه وبدأ بكتابة تقرير عن جولته، ولم ينه مقدمته بعد حتى دخل عليه محاسب المكتب غاضباً وعلامات وجهه لا تفسر، وما أن أنهى عناقه وتهنئته بسلامة العودة حتى بادره قائلاً :

_ أتعرف يا رفيق لم أنم ليلة البارحة، لا أعرف ماذا أفعل ..

_ خير، خبرني إن شاء الله ما في شيء ..

_ أجاب وهو يفرك يديه وعينيه المتعبتين محمرتين كالجمر ..

_ ثقتي بك كبيرة لا أجرؤ أن أتحدث لأحد عما فعلت ..

_ ما الأمر قل لي لعلي أساعدك بذلك ؟

_ طلب مني حسن أن أحرر وصلاً بأربعين ألف دولار دون أن يذكر لي السبب..

_ لعله يريد تغطية احتياجات لا يريد أن يطلعك عليها ..

رد مستنكراً :

_ سبق أن حررت له وصلاً بعشرين ألف دولار،

واكتشفت أني أحرر وصلاً وهمياً ..

_ لم تحدثني عن ذلك من قبل ..

_ أنت تعرف أنه بجرة قلم يطردني من المكتب، أما هذا المبلغ الكبير لم أستطع أن أتحمل التغطية عليه.. لقد جلب أحدهم سيارتين أمس كهدية للمكتب وأنا أعرف ذلك ..

www.alkottob.com

_ كيف تحرر وصلاً وهمياً، ألم تعترض على الأقل ..

_ لقد صرخ بوجهي وكاد أن يصفعني قائلاً ما علاقتك أنت، عليك أن تنفذ ما أكلفك به فقط ..

_ وأذعنت بالتأكيد ؟

_ ليس لي خيار غير ذلك، ولكن ضميري يكاد يشلني عن التفكير ..

_ أكاد لا أصدق أنه يفعل ذلك.. هذه سرقة يا شتات

_ بالله لو كنت مكاني ماذا تفعل ..؟

_ أتريد الحقيقة ..؟

_ نعم ..

_ أنا لا أقبل تحت أي ظرف أن أخون ضميري هكذا.. أنت مسؤول أولاً وأخيراً.

_ أنا أحرر الوصل وهو يوقعه.. المسؤولية تقع عليه ..

_ لا أقصد محاسبتك من قيادتك، بل محاسبة ضميرك لك..

_ لا أدري ماذا أفعل، كيف أواجه الأمر ؟

_ تصرف بما يمليه عليك ضميرك ..

_ من يسندني أو يحمني منه ؟ وأنت تعرف أنه قادر على تكذيبي وتلفيق أية تهمة لي ..

_ لو عرفت القيادة الأمر وتأكدت منه لكان لها معه شأن آخر ..

_ إني خائف ومشتت التفكير، كيف أعيل أبنائي إذا فقدت عملي ..؟

_ لا أستطيع أن أنصحك بشيء تصرف كما تريد ..

_ هل كنت تعتقد يوماً أن يكون حسن لصاً ..؟

_ لا أبداً ولكن تصرفاته في الفترة الأخيرة بدأت تغير من نظرتي إليه ..

_ هل تعرف أنه طلق زوجته ..؟

_ ماذا تقول ..؟

_ طلق زوجته، وهو الذي قبل يدي والداها ليقبل به ..

www.alkottob.com

_ متى حدث ذلك ؟

_ من فترة قصيرة، ولم ينتظر، وتزوج فتاة أخرى، لم يعد حسن الذي تعرفه قبل عشرة سنوات ..

_ عجايب، ما كنت أتخيل يوماً أن يتغير هكذا، كان مناضلاً عنيداً، كيف انقلب على نفسه؟ من يسرق منظمته هو أكثر حقارة من لص يسرق ليسد جوعه ..

_ لقد استغل حاجتي ووضعي، وهو يعرف أني لا أستطيع العودة في هذه الظروف، لا أخفيك لقد صرف لي مائتي دينار كمكافأة، ولكني أعرف أنها لغض نظري وإسكاتي..

_ ما الذي يجعلك تثق بي إلى هذا الحد ..؟

_ أنت نبيل يا صديقي، لا يمكن أن تؤذي رفاقك.. ولو لم أبح لك بما أعرفه لانفجرت ..

_ فيما لو أعلمت القيادة بذلك، هل ستقر بما قلته لي ؟

_ لا أرجوك لا أستطيع ذلك ..

_ إذا لم تشهد وتثبت الموضوع فكيف يقتنعون مني ..؟

_ أرجوك لا تفعل شيئاً، له من الدهاء والتضليل ما يستطيع إخفاء جرائمه وإلصاقها بالآخرين.. دع ذلك لوقت مناسب ..

_ أراك تتسحب من الموضوع، تسترك عليه يعتبر تواطؤاً معه ..

_ أعترف بذلك، ولا حيلة لي.. على الأقل، أرحت ضميري بالحديث معك..

_ هذا أمر خطير يا شتات لا يمكن السكوت عنه ..

_ أرجوك اعتبرني خارج الموضوع، و تصرف أنت بما تراه مناسباً.. ستقول عني جبان، ربما ..

_ لست جباناً فقط، ومن يتستر على السارق مدان ..

_ لا حيلة لي سيكذبني، إن بحت بالأمر لن يقتنعوا مني، وسيعتبرون ذلك تشهيراً به ويدينوني ..

_ لكني سأدعمك وأبين لهم الحقائق ..

_ ما أن تظهر الحقيقة حتى يجوع أولادي وأشحذ لهم لقمة الخبز ..

www.alkottob.com

_إلى هذا الحد أنت خائف ؟ الحياة وقفة عز يا رجل ..

_ أولادي لا يفهموا ذلك، الخبز الدفاتر الأقلام اللباس، حاجاتهم الضرورية أولاً وأخيراً .. ليس لدي مصدر رزق آخر..

_ و ضميرك ..؟

_ وهل يشتري الضمير علبة حليب لطفل ..؟

_ ولكن لماذا أخبرتني بكل ذلك ..؟

_ حتى لا تبقى مخدوعاً أولاً، ولعلي أريح بعضاً من عذاب ضميري ثانياً..

_ حقاً لم أكن أشك به إلى هذا الحد، ولكني بدأت ألحظ سلوكه بالتصرف كرجل أعمال ثري وليس كقائد سياسي شريف ..

_ الدنيا بتغير، صدقني انه لص كبير، من يسرق وطنه يبيعه بأي وقت، كنت تدعمه وتدافع عنه وكان لرأيك تأثير كبير، ليس ذنبك فأنت تجهل حقيقته..

_ أعترف بذلك حتى اليوم، لقد استطاع تضليلي طيلة هذه السنوات وكثيرون غيري مخدوعون به ..

_ أتصدق أنه كان يحرر إيصالات رقمية، ويفقطها كما يشاء ..؟

_ لماذا أخفيت ذلك كل هذه المدة ..؟

_ وهل تعتقد أن لدي خياراً آخر ..؟

_ لا بأس أشكرك على ثقتك بي، سأتصرف بما يمليه علي ضميري ..

_ أرجو أن تبعدني عن الموضوع ..

_ لا تخش شيئاً يا شتات، كن واثقاً لن يصيبك شيء وما حدثتني به في بئر عميق، لن أذكر أسمك أبداً.

و كان شتات كئيباً ومسحة ذل تغطي تعابير وجهه، أغلق الباب خلفه، وبقي عاصم وحيداً وكأن ريحاً عاتية عصفت به.. كيف ظل طيلة هذه السنوات مخدوعاً به.. لم يصغ لتحذير رفيقه وهاب منه يوم قال له :

أنه لا يؤتمن على قرش واحد، و رفض التعاون معه، رغم الإلحاح عليه والإغراءات التي قدمت له، و فضل أن يستمر في موقعه دون أن يحسب عليه وجوده إلى جانبه، وكيف اختلف معه في تقييمه، ودافع عنه بقناعة .. أية سحابة كانت تحجب النور عن عينيه ؟ يجب وقفه عند حده، ووضع الحقيقة أمام قيادته

www.alkottob.com

لتأخذ قرارها بمحاسبته، ولن يكون قرارها أقل من طرده من صفوف الحزب، أو كف يده واعفاءه من أية مسؤولية، وفصله ..

ما الذي غير هذا الإنسان من حالة إلى حاله؟ والده كان يعمل حجاراً في المقالع الصخرية عانى من البؤس والحرمان كثيراً.. لم ترحمه صخرة كبيرة دفعها انفجار عنيف لتسحقه تحتها، طالما كان يعتز بمنبته الطبقي الذي يفترض أن يحصنه بالضرورة أمام انزلاقات الانحراف والسلوك المشين.. لماذا لم يكن يصدق ما يقوله الآخرين عنه ويعتبرها مجرد إشاعات وأقاويل ..؟

لقد اتضحت له الحقيقة المرة، وهي بمرارة العلقم.. لايمكن لشخص كهذا أن يؤتمن على شيء ..

جمع أوراقه ووضعها في حافظته سينهي تقريره للهيئة التنفيذية فيما بعد.. عليه أن يحسم الأمر معه، لا يمكن السكوت عن جريمة ترتكب بحق الحزب وأي ضعف أو خوف من نفوذه جبن وتواطؤ، قد يخسر الكثير بداية، لكن الحقيقة ستظهر في النهاية.. ليس الأمر مجرد أموال عامة ولكن ما يترتب على ذلك الكثير، من يسقط في المنحدر ينتهي إلى الحضيض.. إن استمرار وجوده في موقعه خطر كبير، عليه أن يتصدى له بكل ما أوتي له من أمانة وإخلاص.. أيبحث الأمر معه أولاً؟ سينكر وسيشطاط غضبا وقد يلفق له تهمة التشهير والتحقير أو يقدم له مغريات كبيرة ويحاول كسب صمته والتغاضي عنه، مختلقاً أعذاراً كثيرة، مؤكداً على علاقتهما الشخصية الطيبة، التي يظن أنها تمنعه من كشف حقيقته، لقد تصدى لكثيرين شككوا بنزاهته، ولكنه اليوم أمام حقائق واضحة أذهلته وقلبته رأساً على عقب.. كيف يمكن الاستمرار بالعمل مع لص محترف يلبس لبوس الشرفاء، وينسج حول نفسه غلالة سميكة من الكذب والادعاء؟ لا..لا.. يجب أن يضع بين يدي قيادته هذه الحقائق لمحاسبته، ليكون عبرة لغيره ممن هم على شاكلته.

حمل حقيبته وانسل خارجاً لم يحيّ أحداً في طريقه واكتفى بإيماءة من رأسه رداً على سلام أبو أحمد.. ركب سيارته وانطلق لا يعرف أين يتجه.. كيف استطاع تضليله طوال مدة طويلة وهو الذي يعتقد أن لا شاردة أو واردة تفوته..؟ لقد ارتكب معصية كبيرة بحق نفسه وحق رفاقه الآخرين، مصيبة أن لا يعرف، وإن سكت بعد أن اطلع على الكثير من جرائمه فالمصيبة أعظم.. انغلق تفكيره وتشابكت هواجسه، لن يرتاح له ضمير وسيفقد احترام نفسه و يخون مبادئه إن ترك هذا السارق طليق اليدين، وخلاص الحزب منه مهمة نبيلة، عليه أن يتصدى

www.alkottob.com

لها، وأي هروب منها، جبنُ وخسة لا يقبلها أي رجل شريف..

لم يفسد حسن نفسه فحسب، بل أفسد غيره أيضاً وإذا طال بقاؤه في موقعه فأي خراب سيحدثه..؟

أحياناً يحتاج الإنسان لمزيد من الشجاعة لفعل ما لا يرغب به، وقد فعلت اللحظة فعلها وشحنته بطاقة استثنائية أزاحت عن صدره ضغطاً هائلاً وهو يضع قيادته أمام الحقائق التي اكتشفها متأخراً ..

***

www.alkottob.com

أي سر ذاك الذي يلاشي همومه وشجونه، كلما سار إلى جانبها أو تحدث إليها، شيء غامض يتسلل إلى أعماقه المتعبة، فينعشها ويسري في مشاعره القلقة، فيحيلها دفئاً وحناناً وحبوراً.. لماذا يفلسف الأمور بينه وبين نفسه وهي واضحة أمامه كما يتخيلها دائماً.. وردة شامية نضرة تملأ بعطرها جوانب المكان الذي يحظى بوجودها.. قالت له أنها تحب الشتاء ولياليه الطويلة، تفرحها لسعة البرد وزخات المطر ..

_ وأنا أيضاً أحبه ولكني متخاصم معه ..

ضحكت وسألته:

_ لماذا تخاصمه ..؟

_ لقد قلت مشاويرنا معاً على ضفاف بردى أو الجلوس معاً تحت أشجار الغوطة.. إنه جميل، ولكنه يفرض طقوسه علينا ..

رن صوت ضحكتها الذي تماهى مع لون ثغرها القرمزي:

_ ولكننا الآن نجلس في أجمل مقاهي المدينة القديمة،

وأنت يعجبك دائماً التنباك المتآلف مع بخار الشاي الساخن ..

_ لا شك يا روحي، وجودك معي في أي مكان يصبغه بسحر لا أفلت من أسره.

_ أنت تعشق دمشق القديمة أزقتها حواريها والياسمين المتدلي على جنباتها بيوتها الطينية والخشبية وتراثها المغرق في القدم، طالما كنت تقطف لي أضاميم من زهور الياسمين مازلت أحفظها بين طيات كتبي ..

_ الياسمين يذكرني بك دوماً، لا أدري لماذا أحس أنهم غرسوه من مئات السنين وما زالوا يغرسونه من أجلك وحدك..

كانت ابتسامتها ترسم هالة جذابة على محياها :

_ أين ذهبت في خيالك..؟ هناك كثيرات مثلي واجمل مني..

_ لا تتواضعي يا حبيبتي.. أنا لا أرى مثلك أبداً ليس الجمال وحده ما أعنيه، كل شيء فيك متناسق إلى حد الكمال..

www.alkottob.com

_ أنت دائماً تلهب عواطفي وخيالي بكلماتك ..

_ الكلمات لا تعبر تماماً عن العواطف، العواطف أغزر وأعمق وأشمل.

_ كنت قلقة ومهمومة في الأيام الماضية، لم تحدثني سوى القليل عن المشاكل التي تواجهك، تحاول دائماً أن تتجنب ما يمكن أن يزعجني ..

_ كل عمل سياسي تتخلله صعوبات وعقبات، ولأنه مرهون بمبادئ وقيم، تكون أشد وأقسى ..

_ أين وصلت في تصديك للمدعو حسن..؟

_ قلت لك سابقاً، أن الحق ينتصر أخيراً مهما امتلك الأشرار من القوة والنفوذ.

_ لا أدري لماذا تتجنب أن تحدثني عن عملك، تستطيع أن تسمع وجهة نظري على الأقل إنني قلقة عليك، ولكنني أشعر اليوم أنك مرتاح وأساريرك مبسوطة.

_ أعرف أن أمور السياسة لا تهمك كثيراً، ولهذا أحرص أن تكوني بعيدة عن شجونها ..

_ ما يهمك يهمني، لأجلك أصبحت أهتم بها، أقرأ الصحف اليومية وأتابع أخبار الوطن والعالم، لقد غيرت فيَّ أشياء كثيرة، لكني أجد المسافة طويلة بين ما تحلم به وما هو قائم ..

_ المهم كما أعتقد أن لا يستسلم الإنسان للإحباط واليأس، لا شيء مستحيل ..

_ تعجبني عصاميتك وإصرارك على ما تؤمن به، ولكنك لم تجبني بعد ..

_ الجواب مضحك ومبكي، لقد هرب حسن إلى الأردن عندما حاصرته الحقائق وأحس أنه تعرى تماماً ..

_ أفلت من المحاسبة إذن ..!

_ تصوري عندما دققت لجنة التحقيق في قيود حساباته، تبين فقدان ما يزيد على ستمائة ألف دولار، هذا عدا حصيلة الفواتير المزورة ..

_ هذه جريمة كبيرة !

_ ستبقى وصمة العار تلاحقه في كل مكان ..

www.alkottob.com

_ أليس بالإمكان أن تسترجعوها منه ؟

_ من المهم أن نسترجعها، ولكن الأهم أنه انكشف على حقيقته، وأصبح مطروداً من الحزب، ولو استمر على وضعه لا نعرف مدى الأذى الذي سيلحقه بنا.

_ هذا المبلغ ثروة كبيرة، لا شك أنه بلا ضمير.

_ أي ضمير لأمثاله، لقد باعوا مبادئهم أمام جنون شهواتهم، أحياناً أدهش كيف ينسلخ ومثله عن أخلاق طبقته لعلها عقدة النقص هي التي دفعته للغرق في المستنقع القذر..

_ لدي إحساس أنك سعيد جداً اليوم، لقد انتصرت في معركتك ..

_ لا شك أشعر بالارتياح، حاول جاهداً أن يتهمني بالتشهير به واستغل كل نفوذه مع من يجهلون وضعه إلا أن الحقيقة أقوى منه، وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح ..

_ لو تدري كم أنا فخورة بك ..

_ لست بطلاً كما تظنين، ولكني قمت بواجبي رغم ما تعرضت له من متاعب وأرحت ضميري واعتزازي بك لا يوصف، لقد وقفت بجانبي في أحلك الظروف، وشجعتني في الثبات على موقفي المبدئي رغم محاولاته البائسة لشراء ضميري وإغراقي معه ..

_ أي صنف من الرجال هؤلاء ..

_ لا تستغربي فأمثاله موجودون في كل مكان، يستمرئون المال الحرام، ولكنهم يعيشون منبوذين في النهاية..

_ أشد عقوبة على الإنسان أن يشعر أنه منبوذاً .

***

www.alkottob.com

_ لا شك في ذلك، لا يستحق أن يأخذ من حديثنا كل هذا الوقت.

_ ما رأيك أن نتمشى، لقد توقف المطر والريح ساكنه .. أحس بمتعة كبيرة وأنت معي في شوارع دمشق القديمة .. تذكرني دائماً بلقائي الأول بك .

_ يوم لا ينسى ذاك اليوم، إنه يوم ولادتي الحقيقية .

كان مقهى النوفرة يعج بسياح غربيين يبدو الانشراح على وجوههم، بعد رحلة على الأقدام في المدينة القديمة، وبعض أهلها، ووجوه معروفة في الوسط الفني والثقافي، لعل ذاك السحر الغامض الذي تعبق به كنوز الحضارات التي توالت عبر القرون لتشكل هذه اللوحة المدهشة.. القصر الأموي وباب الساعات وباب شرقي والمكتبة الظاهرية والخانات التي ما زالت قائمة رغم تعاقب السنين الطويلة، والأزقة المبلطة والبيوت الواسعة التي يتوضع في وسطها قصر العظم الذي يشكل تحفة فنية تحتفظ بأسرار البناء الشرقي ودفئه وبساطته وما يختزنه من حكايات وأساطير صاغتها خيالات الأقدمين وإبداعاتهم ..

احتضنت يده يدها و عبرا باب النوفرة، وعلى الأرض

المبلطة كانت تسمع وقع خطواتهم، حبيبان عاشقان تفرح الدروب بهما، وعندما تغسل الطبيعة نفسها، ترتسم الحكايات الجميلة على طرقاتها الموشاة بوشاح من الغيوم يثير في خيالات المحبين مواسم الحب و الجمال، ويوقظ في داخلهم أحلام الأيام الآتية بهية وناصعة ومشرقة ..

لحظتها كانت تحس أنه ملك لها وحدها وكان يبادلها الإحساس نفسه، شعور بالدفء يحتويهما لا مثيل للإحساس به في أية مدينة أخرى، هكذا على الأقل ما كان يجول بخاطره.. ومن باب الأموي حتى الحمام التركي كانت الأنوار المتناثرة وقد زادها لمعانا غروب الشمس الشتائية والغيوم الرمادية الهابطة التي تكاد تلامس مئذنة العروس الأنيقة، وهي ترسل أنوارها الباهرة عبر الطرقات وأسطح البيوت والدكاكين المصطفة على جانبيها.. ومن نهاية سوق البزورية مروراً بكنيسة المريمية والزيتونة، قادتهم خطاهما حتى حارة جعفر حيث كان بيت خطيبته القديم لم يتغير به شيء سوى ساكنيه، وما زالت روائح الليمون والياسمين تتسلل عبر شقوق الأبواب الخشبية القديمة والنوافذ المفتوحة وتنتشر عبر الأزقة الضيقة لتجعل من السير فيها متعة لا تنسى.. للمكان أحيانا ألفة قوية لا تستطيع

www.alkottob.com

نسيانها بسهولة وكأن به مغناطيسا قويا يجذبك إليه كلما حاولت الإبتعاد عنه.. لم يكن يود الرحيل من بيته و لكنه أحس بوحدة قاتلة، بعد انتقال حبيبته مع أهلها إلى بناء جديد..لم يعد قادراً على الاحتمال وهو ينظر إلى الياسمينة التي كانت تجلس في ظلها، أو الأزقة الخاوية التي هجرت خطواتها، وهي ذاهبة إلى مدرستها وعائدة كم حاولت أن تؤخر الإنتقال إلى البيت الجديد، إلا أنها لم تفلح في ذلك، فمعظم الميسورين من أبنائها أغرتهم بيوت الإسمنت الحديثة التي حولت حدائق دمشق و جنائنها إلى نتف متباعدة بعد أن اقتلعت الجرافات و الحفارات أعداداً هائلة من أشجار الصنوبر و الكينا والليمون والمشمش والسفرجل والتفاح، وتحولت الغابة الخضراء إلى مجاميع من الإسمنت المسلح صحرت المدينة الجديدة بسرعة عجيبة ..

هل هو الحنين إلى الماضي القريب، أو الذكريات التي لا تنسى، تجعله يعشق هذه الحارة القديمة؟ ربما.. تحدثا بأمور شتى طوال الطريق، وعندما وقفا قليلاً أمام بيتهم القديم قال لها :

– ما رأيك أن نستأجر بيتاً هنا إنه أجمل من البيوت الحديثة ؟

قالت مبتسمة:

_ لا يهمني المكان بقدر ما يهمني وجودك معي فيه..

_ لو لم أتخصص في بيت الجمعية السكنية، لاخترت أي بيت شاغر هنا.. وسكنا فيه..

_ نحن محظوظان في الحصول على بيت في وقت تشهد فيه الأسعار ارتفاعاً جنونياً

_ الجمعيات السكنية حلت مشاكل الكثيرين، لولاها لما حظيت بامتلاك حتى غرفة واحدة، فدخلي لعشرين عاماً لا يشتري بيتاً بأسعار هذه الأيام. كنت أحلم أن أملك بيتاً كبيتكم القديم نصحو صباحاً على رائحة الليمون والنارنج والياسمين وزقزقة العصافير المبتهجة، نشرب قهوتنا في أفيائها، الحياة تتغير لا تبقى على وتيرة واحدة ..

_ أي مكان يجمعنا حلم بالنسبة لي ..

_ بعد شهر نتسلم مفاتيح الشقة، وتأثيثها البسيط عليك أن تختاريه أنت ..

_سنكتفي بالحاجات الضرورية الآن، وكلما توفر لدينا مبلغ نشتري

www.alkottob.com

ما ينقصنا على راحتنا ..

_ أنت رائعة دائماً ..

_ أعتز بنزاهتك واستقامتك لو ضعفت أمام المغريات المادية لكان لديك رصيداً بالملايين.. لكن رصيدك في قلبي لا يعادله أي شيء آخر.

_ يكفيني ذلك يا حبيبتي، حبك لي يجعلني أسعد رجل في العالم ..

اقترب بائع عرانيس الذرة يجر عربته ببطء والبخار المتصاعد من الحلة الكبيرة يتكاثف في الجو الذي ازدادت برودته ويتلاشى مع الحرارة التي تبعتها شعلة "اللوكس" المتوهجة، وكأنه وهو ينادي بلحن لا يتغير لحثهما على الشراء وتناول عرنوسين من الذرة ورشهما بقليل من الملح وقدمهما لهما، شكراه على ذلك ووضع عاصم بضعة ليرات على جانب عربته، وتابعا طريقهما وهما يقضمان حبات الذرة بلذة وسرور ..

***

www.alkottob.com

عاد إلى مكتبه بعد انقطاع قسري دام فترة طويلة، لم يتغير شيء، الطاولة الخشبية المنمقة والكنبات المريحة والمكتبة الصغيرة التي تضم عدداً من الكتب الفكرية والسياسية والمشجب المسند إلى الزاوية والمكيف المعطل عن العمل، والمزهرية الليلكية الفارغة التي أحضرها معه يوماً من رحلته إلى اليونان ما زالت في مكانها، وكأن أبو أحمد حرص على بقاء كل شيء كما تركه يوم خرج من مكتبه وأقسم أن لا يعود إليه ما دام حسن موجوداً في المكتب المجاور.. وهاهو يعود بعد أن صرفت القيادة جميع العاملين ولم تستثن أحداً سواه، وأبو أحمد الحارس ليلاً ومعد الشاي والقهوة نهاراً الذي عانقه بحرارة وتمنى له من أعماقه التوفيق، شاكراً الله على الخلاص من حسن السيئ السمعة الذي أذاقه المرارة والإجحاف ..

أحس أنها بداية جديدة، ومرحلة مختلفة تقتضي عملاً مضنياً، ونشاطاً مستمراً لمسح الآثار المؤذية التي تركها هروب حسن وبعض الذين اشترى ضمائرهم وانفضح أمرهم، مما يتطلب إعادة ترتيب الأوضاع واختيار الأمناء والمخلصين لمتابعة المسيرة.. وما حدث محطة لا بد من التوقف عندها للمراجعة والانطلاق من جديد ..

كل شيء صامت في مكتبه حتى ستارة النافذة لا تجد هبة خفيفة تحركها، وشمس نيسان تبعث دفئها اللطيف على الأرض المغتسلة بالمطر الربيعي الخفيف، وتبدو الأشجار في الحديقة أكثر اخضراراً واللوزة الوحيدة بزهرها الناصع البياض تتوسطها وكأنها عروس فتية تتباهى بفرادتها.. وبجمالها الأخاذ..

الطبيعة الصامتة أحياناً تبعث في نفسه النشوة وشعوراً رقيقاً بالأمل والتفاؤل، لم يتأخر أبو أحمد في تقديم فنجان القهوة الصباحي المعتاد مكرراً دعاه له بالتوفيق ومنحه الصحة والعافية.. وكان سرور أبو أحمد بادياً على وجهه، وهو يعلمه بقدوم زائرين له طلب منه دعوتهما للدخول.. ونهض من وراء مكتبه يستقبلهما أمام الباب.. وديع وسامي وأنور زملاؤه السابقين الذين تعرف عليهم في مؤتمرات الاتحاد وعادوا منذ سنوات قليلة إلى بلدهم بعد تخرجهم من جامعات يوغسلافيا والتحقوا بوظائف حكومية حسب اختصاص كل منهم، جاؤوا إلى دمشق بزيارة استجمام خاصة وإن كان من أولوياتها زيارته والاطمئنان عليه ..

www.alkottob.com

رحب بهم وعانقهم بحرارة ودعاهم للجلوس وهو

يواصل أسئلته لكل واحد منهم، عن أحواله الخاصة والعامة، واستعاد ذكريات الأيام الماضية التي شهدت لقاءاتهم في المؤتمرات السابقة وخلافاته السياسية معهم التي كانت تتمحور حول جنوحهم إلى أقصى اليسار في أفكارهم وتأثرهم بالعناوين المبهرة التي كان يطرحها زميلهم صالح وبعض الملتفين حوله، وفاجأه سامي وهو يسترسل في الضحك ..

_ صالح.. يبدو أنك لا تعرف أخباره اليوم ؟

_ منذ أكثر من ثلاث سنوات لا أعرف عن أخباره شيئاً.

_ ألا تعرف أنه عاد إلى عمان ؟

_ لا، والحقيقة أنني لم أسأل عن أخباره .

_ الأفضل أن تبقى جاهلاً أخباره ..

قال باستغراب :

_ ماذا يعمل الآن؟ بالعكس أشتاق أن أعرف عنه كل شيء، لا شك أنكم تلتقون معه ..

_ ضحك ثلاثتهم وقال سامي :

_ نلتقي معه..! ربما عن طريق الصدفة، صالح اليوم غير صالح الأمس .

_ ما الذي تغير ..؟

_ أتعرف يا عزيزي.. صالح تحول من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.. لقد أدهشنا نحن الذين ابتعدنا عن النشاط السياسي ..

_ أيعقل أن يتحول بهذه السرعة.. ماذا يعمل الآن ؟

_ أحد كبار محرري صحيفة يومية ويكتب عاموداً سياسياً فيها.. لو قرأت له ما يكتب لصدمت.. تحت عنوان الواقعية التي ينادي بها برر كل تحولاته العجيبة.

_ كان أكثرهم صخباً وأعلاهم صوتاً ألا تذكركم طبل وزمر لممثل الطلبة الفرنسيين الماوي في مؤتمرنا الثالث ..

_ ليس هذا فحسب لو تعرف كم كان يخطب علينا ليستميلنا إلى تياره.. لا أنكر أننا خدعنا به كما خدع كثيرين غيرنا .

www.alkottob.com

_ لم أكن ألحظ أنه يهتم بالعمل الصحفي أصلاً.

_ بيروت وفرت له مناخاً مناسباً واستطاع أن يطور نفسه.

_ ما يدهشني انتقاله السريع من تيار إلى تيار اصطدمت معه كثيراً في غلوائه بالمواقف السياسية الحادة ..

صدقوني أني كنت أتوقع أن شخصاً كهذا سريعاً ما يتحول

عن قناعاته المبدئية إلى البراغماتية ..

_ هو كذلك، المال يغير كل شيء ..

_ لا أبداً المبادئ لا تشترى أو تباع يا سامي.. لكن ضعاف النفوس ينهارون أمام المال ..

_ هو سعيد بما هو عليه الآن، يتقاضى دخلاً كبيراً ويملك بيتاً فخماً لا يعوزه شيء ورفاقه القدامى الذي نسيهم أو نسوه استبدل بهم أصدقاء جدد على شاكلته ..

_ الدنيا عجايب يا سامي، ولكن عندما يلتقي أحدكم به كيف يبرر موقفه ..

ضحك ثلاثتهم وقال وديع:

_ منذ أيام التقيت به صدفة عند أحد الأصدقاء القدامى حاولت أن أخفي انزعاجي من وجوده، كان يتحدث كالطاووس عن الواقعية والعقلانية وعندما سألته وهل العقلانية تعني الانحراف عن المبادئ والمثل التي كنت تدعي الإيمان بها يوماً، وطلقتها بكل هذه السهولة لتسوق الآن أفكارك الإقليمية والعشائرية والرجعية ..؟ أجابني بأني مازلت أعيش عقلية الخمسينات، لولا تدخل صديقي لكسرت له أنفه..

أضاف أنور :

_ المشكلة ليست في تحولاته الفكرية والسياسية ولكن مزاودته وانتفاخه زهواً بنفسه، معتقداً أنه قطب وحيد على الآخرين اللحاق به ..

قال عاصم:

_ لكل إنسان طبيعته، لعله يحارب ذكرياته يوم كان موغلا في التطرف ليقنع نفسه ويقنع الآخرين بصواب خياراته.. ما علينا، ما هي أخبار حسن عندكم ..

رد سامي محتجاً :

www.alkottob.com

_ حسن.. وهل يستحق أن نتحدث عن أخباره، صدقني لا أحد يحترمه.. بنى قصراً على مساحة تزيد عن أربعين دونماً من أجود الأراضي في اربد، ولديه رصيداً هائلاً يقدر بثلاثة ملايين دينار، وهذا ما سمعناه على لسان أخيه.

علق وديع :

_ ما نستغربه من أين جمع هذه الثروة الكبيرة؟ كنا لا نصدق كل ما يقال عنه حتى تأكدنا بأنفسنا ..

قال عاصم :

_ لقد خسر نفسه و لو ربح العالم كله، كنت اعتبره

لفترة طويلة أميناً وشريفاً قبل أن اكتشف سلوكه المشين.. المفزع أن تكتشف الأمر بعد فوات الأوان ..

تدخل أنور في الحديث :

_ لم أعرف أحداً ذكر اسمه أمامه لم يلعنه ..

أضاف سامي :

_ من يسرق رفاقه يسرق وطنه يكفي أنه يعيش منبوذاً إلا ممن هم على شاكلته ..

قال عاصم :

_أعتقد أنها أقسى عقوبة يعيشها الإنسان ..

أتعبتكم بالأسئلة، مشتاقون للتجوال في دمشق الوقت مناسب الآن لزيارة الأسواق القديمة وبعدها نذهب للغذاء، وفي المساء نتمشى في الصالحية، أما السهرة فاختاروا المكان الذي يعجبكم ..

أجابوا معاً ..

_ اقتراح جيد.. لنذهب إذن ..

قبل أن ينطلق بالسيارة باتجاه الحميدية استدرك قائلاً :

_ وسمير، لقد نسيت أن أسألكم عن آخر أخباره ..؟

قهقه سامي وشاركه صديقاه الآخران بالضحك وقال :

_ أي بيه ، سمير اليوم حامل صولجان الحكومة ..

www.alkottob.com

_ ماذا تعني لا أفهم ..؟

أنت تعرف كان اكثر الناس تطرفاً وادعاء بالفكر القومي واليساري وكان يعتبر نفسه تلميذاً لصالح.. وكما انحرف صالح انحرف هو ولكن كل على طريقته ..

_ الغريب كيف يغير المرء قناعاته كما يغير قميصه ؟

رد أنور :

_ لا تستغرب شيئاً هذه الأيام، سمير موعود بوزارة، وهو حلم يراوده منذ تخرج من الجامعة ..

قال عاصم :

_ هذا حلم مشروع ولكن ليس بالطريقة التي يسلكها ..

علق وديع :

_ أمام هذا الهدف لاتهم الوسيلة التي يتبعها وهو يعمل الآن على تشكيل حزب سياسي يتكئ عليه لإبراز زعامته، دعاني أحد مؤازريه للتعاون معهم.. ضحكت من أعماقي وقلت له أنكم تستحقون الشفقة ..

قال عاصم :

_ يبدو أن العشيرة تدعمه ..

أجاب وديع:

_ بالتأكيد وبعض المتنفذين أيضاً، أؤكد لكم أنه سيتسلم وزارة في فترة قريبة ..

علق أنور ضاحكاً:

_ لا بأس أن يأتي وزيراً نعرفه أفضل من وزارة لا نعرف فيها أحداً ..

ضحك جميعهم على كلمة عجايب التي قالها عاصم وهو يركن سيارته خلف مقر قصر العدل وساروا مبتهجين باتجاه سوق الحميدية الأثير ..

***

www.alkottob.com

كانت الرياح عنيفة عاصفة في الخارج وكان لصوتها الضارب في الأشجار فحيحاً خاصاً لا شبيه له أبداً يعيد إلى ذاكرته أيام طفولته، وحكايات جدته عن الغول الضخم الذي تطير نفخته الجبل وتنقله من مكان إلى آخر كثير من الأشجار العارية على جوانب الطرق انقصفت أغصانها الكبيرة وتبعثرت في المساحات الفارغة والزوايا الضيقة للأبنية، التي لم تستطع رغم ارتفاع بعضها الشاهق حمايتها من عصف الريح الغاضبة.. فيما يشبه هذا اليوم في صغره، كان يقترب من النافذة ويسحبها ببطء وصعوبة إلى الحد الذي يتشكل معه شقاً يكاد لا يرى، ما بين النافذة وإغلاقها، فينبعث صفيراً نحاسياً متعدد الطبقات يصغي إليه بشغف، ولم يترك هذه العادة التي دأب عليها إلا عندما خبطت النافذة وجهه و أسالت دم أنفه، بعد أن دفعتها الريح بشدة، لم يقو على التحكم بها، وكأنها تنذره بعدم العبث معها مرة أخرى.. لا يدري لماذا تبعث الريح في ذاكرته خواطر كثيرة..؟ والدته الطيبة التي ضمته يومها إلى صدرها بحنان بالغ وأنبته برقة ألا يلعب بالنافذة، ماذا لو انكسر زجاجها وتهشم على رأسه..؟ وأخواته اللواتي اجتمعن حوله يحاولن تخفيف ألمه.. لم تتمالك أمه من وقف ضحكتها وهو يقول لها.. غول جدتي غاضب اليوم، نفخته طيرت أشجار بيتنا.. كان مدللاً من والديه وكان يحس بذلك رغم تمرده أحياناً على إيثاره بكل شيء عن أخواته اللواتي لا يملكن القدرة على الاحتجاج، مما كان يزعجه كثيراً ويطالب بمساواته بهن.. لعله الإحساس بالتمرد كثيراً ما كان ينسب أخطاء أخواته إليه.. إن كسر صحن أو تلوث مقعد أو انسكب حبر على منضدة ..

هاهو وحيد الآن، ولسنوات طويلة لم يسمح له وضعه بالعودة إلى أهله ..

لا يجد تفسيراً لقدرته على تحمل ذلك، إلا أنها دمشق تختزل المدن العربية كلها أو هكذا يبدو الأمر إليه.. والده كان يحلم أن يتخرج من الجامعة ويعود ليتسلم منصباً رفيعاً يفخر به، أين ذلك الحلم اليوم..؟ لقد ترك له حرية الاختيار.. ماذا لو درس في بريطانيا أو أمريكا كما رغب عمه واستعداده للتكفل بكل مصاريفه لكان وضعه مختلفاً اليوم بالتأكيد.. فيلا في عمان الغربية، وبدل السيارة اثنتين، ودخلاً وفيراً، ومركزاً اجتماعياً مرموقاً.. هكذا وعده يومها، ربما لأنه كان يطمح بتزويجه ابنته التي كانت طفلة لم تتجاوز العاشرة من عمرها..هل كان

www.alkottob.com

مخطئاً أم مصيباً في قراره..؟ كل ذلك لا يساوي نظرة من عيني حبيبته الدافئتين، أين يمكن أن يجد ما يشبهها، كل مائة عام فقط تحتفل دمشق بولادة أميرة مثلها.. الأقدار وحدها ساقته للقاء بها، لو امتثل لرغبة عمه وامتلك قصوره وجنائنه ومسابحه في أكثر من مدينة ومنتجع، وأرصدته المنظورة، وخسر حبيبته لخسر كل شيء ..

منذ ذلك اليوم الذي غضب فيه عمه وصرخ في وجهه مردداً كلمة " ستندم كثيراً " لم يعد يسأل عنه بل قيل له أنه تناسى وجوده.. أن يملك شقة صغيرة في جمعية سكنية، شيء جميل يشعره بالسعادة ما دامت ستضمه مع حبيبته.. هل هو رومانسي حالم ..! أمور كثيرة تغيرت، القيم النبيلة التي كانت سائدة تبدلت مفاهيمها، عند كثيرين استبدلوا جلودهم واستسلموا لمظاهر الحياة الاستهلاكية المزيفة، ليس مهماً أن يقال عنك شريف ونظيف المهم أن تعرف كيف تنتهز وتجمع المال بأي طريقة.. أن ترتشي مثلاً أو تسرق من المال العام، توصف بالشطارة والذكاء، أو تبقى كما أنت يقال عنك مسكين ودرويش..

يا الله كيف انقلبت المفاهيم واعتورت القيم ؟

كان يستطيع بكل بساطة أن يغتنم الفرص الكثيرة المتاحة له ليجمع ثروة كبيرة ولكن اعتزازه بنفسه وتقديسه لكرامته حصنته من أي انزلاق في المستنقع القذر ..

قد لا يكون في جيبه الآن ما يشتري زجاجة نبيذ وعلبة سجائر للاحتفال بقدوم السنة الجديدة، ولكنه سيتسلم راتبه قبل موعده وسيحتفل أجمل احتفال مع حبيبته ..

بدت الريح أكثر عنفاً وهي تجوب الشوارع وحدها غير عابئة بأحد، مستبيحة كل شيء دون مقاومة.. لا يعرف لماذا تذكر الروايات المرعبة عن جحافل المغول الذين عبروا المدن واستباحوها وتركوها خراباً يباباً وكيف تصدى لهم أهل هذه المدينة مع فزعة إخوانهم الآخرين ودحروهم ببسالة منقطعة النظير ..

جو كالح حالك كهذا تزيده الغيوم الكثيفة السوداء التي تبدو ساكنة بلا حراك وبلا نهاية قتامة وشحوباً.. ما الذي جعله يتجه باكراً إلى مكتبه، والمرور على صندوق البريد في مثل هذا الجو العاصف أمراً غير ضروري، وربما يثير الاستهجان أيضاً.. ولكن إحساسه الغامض بتوقع وصول بطاقات بريدية بمناسبة السنة الجديدة دفعه لذلك..

www.alkottob.com

المدارس أغلقت أبوابها اليوم، وكثير من العاملين التزموا بيوتهم، أما هو فلم يأبه بغضب الطبيعة وجنونها ..

كانت سيارته ترتج بعنف، وأقل ثباتاً على الطريق تصارع الريح العاتية والرذاذ الثلجي على زجاجها الأمامي والماسحة غير قادرة بحركتها البطيئة على القيام بدورها تماماً، لماذا يحب الليالي الشتائية العاصفة ألأنها مختلفة وتعبيراتها العنيفة مظاهر احتجاج صارخة على الرتابة والهدوء والسكون؟ تذكر الأمواج العاتية التي اقتلعت كثيراً من المراكب عن مراسيها وبعثرتها على شاطئ فلنسيا محدثة فزعاً رهيباً، لا يملك أحد قدرة السيطرة على خوفه وهو يرقب المشهد من نافذة الفندق المطل على البحر الذي لا حدود لثورته المجنونة ..

وتخيل الساعات الرهيبة التي قضاها في الطائرة مع زميله مازن وهي تعبر بحر العرب، العاصفة الرهيبة كادت أن تحطمها، رغم الفزع الذي عاناه طوال الرحلة والتي جمدت الدم في عروقه إلا أنه ينظر إلى هذا الرحلة كتجربة مثيرة مرت في حياته لا يمكن نسيانها..

ضحك بينه وبين نفسه وهو يستعيد ما قاله مازن يومها:

تصور أن تهوي الطائرة في البحر مع حمولتها من العمال المهاجرين إلى الخليج وليس فيها سوانا غريبين عنهم، لن يذكرنا أحد سأروي لمؤنس القصة إن هبطنا سالمين لعله يستلهم مادة رواية ناجحة.. لا يعرف إذا كان زميله قد وفى بوعده ..

ترجل من سيارته والريح الثلجية تكاد تطيره من مكانه، ولف رأسه بالشال ودلف مسرعاً من باب مبنى البريد، فتح الصندوق على عجل وأصابعه ترتعش من البرد، كان حدسه صائباً، ثمة بطاقة بريدية ورسالتان، وضعهما في جيب معطفه وعاد إلى سيارته، فكر أن يعود إلى البيت ولكنه وجد نفسه متجهاً إلى المكتب.. أسعده أن يجد أمين الصندوق في غرفته، سيتسلم راتبه اليوم قبل نهاية الشهر فجيوبه خاوية إلا من بضع ليرات قليلة ..

خلع معطفه الأسود السميك وتناول رسائله من جيبه، وجلس إلى جانب المدفأة، شعر بانتعاش أطرافه التي جمدها البرد، أمسك البطاقة بلطف.. منظر جميل لفتاة تجلس على شاطئ البحر والأفق القرمزي يعكس ضياءه على صفحته الزرقاء، وكأنها في تطلعها إلى المدى البعيد تنتظر عودة المراكب المبحرة منذ زمن طويل، وعلى الوجه الآخر تأمل الكلمات القليلة المكتوبة بخط أنيق ..

www.alkottob.com

أخي الحبيب.. نتمنى أن تكون معنا ليلة رأس السنة، لعل أمنياتنا تتحقق يوماً.. نتمنى لك عاماً سعيداً ..

كلنا نحبك ونشتاق إليك كثيراً .. أختك العزيزة ..

وضع البطاقة في جيب سترته الداخلية.. أحس أنها قريبة من قلبه لاشك سيعود يوماً لعله يوم قريب ..

أخذ رشفة من فنجان الشاي الساخن الذي أحضره أبو أحمد، ورفع شعلة المدفأة إلى آخرها ورغم توهجها لا تشعر بالدفء إلا بالاقتراب منها، فالبرد القارص يتسرب من الشقوق التي تكاد لا تلحظ في الأبواب والنوافذ التي تجمعت ذرات الثلج في زواياها، والجدران الإسمنتية تحولت إلى قوالب ثلجية من شدة البرودة، فتح الرسالة الأولى بعد أن لحظ اسم مرسلها نزيه الذي يشتاق إليه كثيراً، وكم تمنى لو بقي إلى جانبه ..

عزيزي عاصم ..

اشتاق إليك كثيراً، لا تسعفني الكلمات في التعبير عما يكنه لك قلبي من محبة وتقدير واحترام..

تعرف أني ما زلت مهندساً في البلدية. طلباتي رفضت كلها

للعمل في أي مؤسسة حكومية.. لا بأس الأيام تمضي رتيبة مملة.. الحب لم يطرق بابي بعد والزواج لا أفكر به رغم أني قاربت الأربعين والأصدقاء، قلة إلا أننا نلتقي أحياناً رغم تباعد المسافات، أشتاق لدمشق كثيراً، شيء ما اجهل تفسيره أن أعشق مدينة إلى حد الهيام بها.. لا أعرف كأن دمشق لها سحر لا تملكه مدينة أخرى.. سمعت أن تريز تزوجت مهندساً فرنسياً وأخذها معه إلى باريس، كم أتمنى لها السعادة، ويسعدني أن تخبرني إن كنت تعرف عن أخبارها شيئاً ..

نذكرك في كل لقاء ونعرف أنك تشتاق إلينا أيضاً ..

يسرني أن أعلمك أن هناك اتجاها قوياً لدى الحكومة لإلغاء الأحكام العرفية، فالضغوط التي تواجهها لا تسمح لها بالتراجع عن اتخاذ قرارها. وهذا ما يشعرني باطمئنان اللقاء بك قريباً هنا. في كل لقاء مع الأصدقاء القدامى نتذكرك.. وهاب الذي شغل مديراً لفرع بنك، أفلس البنك وهرب رئيسه بعشرات الملايين من الدولارات، عاد إلى قريته، وفتح ما يشبه البقالة وهو يعيش على راتب زوجته المدرسة، والقليل بما تجود أرضه المحدودة في مواسم الغلال .

www.alkottob.com

عبد القادر، ارتقى سلم الوظيفة بسرعة، أخيراً صدرت الارادة الملكية بتعيينه محافظاً، نادراً ما نلتقي به، أصبحت له حياته الخاصة لا نحسده عليها طبعاً ..

المهندس سمير، التحق في قطاع المقاولات في السعودية، جنى ثروة كبيرة، وبنى قصراً في عبدون، لاينسى أن يدعونا إليه بين فترة وأخرى، يعيش مع عائلته حياة مترفة لا أستطيع وصفها لك، يسعى لمنصب وزاري للوجاهة فقط ..

حميد مازال معلماً، يلبس بدلته التي تكاد لا تتغير أوقات الدوام ويستبدلها بالدشداشة عند عودته للبيت، لا يقطع فرضاً ولا ينسى صياماً، عزل زوجته وبناته عن محيطهم، يتمتم بكلمات غير مفهومة وهو يعبر الشارع في طريقه إلى الجامع في موعده المعتاد، لا نعرف هل هو يتحدث إلى نفسه أم إلى الله ..؟ أحياناً يرد سلاماً وأحياناً لا يأبه لأحد ..

أما الدكتور نسيم الذي أعتقد أن أخباره تهمك قبل الآخرين، فليس لدي رغبة أن أحدثك عنه ..

ما آمله أن نراك قريباً.. والمنسف الذي تحبه جاهز للتقديم على شرفك.. أتمنى لك كل السعادة مع العام الجديد.. صديقك ..

ضغط الجرس إلى جانبه، فأقبل أبو أحمد مسرعاً، طلب منه أن يحضر له فنجاناً كبيراً من القهوة، أشعل سيجارة، وتصاعد دخانها اللولبي كما تصاعدت أفكاره.. صور من الذكريات لأيام الجامعة اختلطت بأسئلة كثيرة.. الحياة تتغير والناس يتغيرون. صديقه العصامي هذا بقي ثابتاً على مبادئه، ولكنه عزف عن الانخراط في أي تنظيم سياسي، محبط ووحيد، لم يجد بعد الفتاة التي تملأ عليه حياته ..

نظر إلى مغلف الرسالة الثانية، فعرف أنها مرسلة من مدينة ديترويت في الولايات المتحدة الأمريكية، ودهش أن يكون مرسلها الدكتور نسيم فمنذ عدة سنوات لم يسمع عن أخباره سوى أنه رحل إلى أمريكا ليختص في مجال مهنته ولكنه لم يعد إلى بلده.. فض الرسالة على عجل وأخذ يقرأ ..

صديقي العزيز عاصم ..

أعرف أنها مفاجأة أن أبعث لك رسالة بعد نسيان أعترف أني مسؤول عنه طيلة هذه السنوات، وقد لا يكون مرحباً بي عندك للوضع الذي أنا عليه.. ستقول

www.alkottob.com

عني ساقطاً أو بتعبير أقل قسوة منسلخاً عن جذوري ومبادئي، لك كل الحق في ذلك، لقد أغرتني الحياة المترفة ولا أعرف كيف استقطبوني وأرسلوني

إلى هنا، لقد أصبحت جزءاً منهم، ولا أستطيع التراجع حتى لو أردت ذلك ..

تزوجت بعد أيام قليلة من وصولي إلى ديترويت من فتاة أميركية ثرية، لا أعرف عنها شيئاً، سوى ما قالوه لي بأنها تحمل رسالة ماجستير في التاريخ، طيبة وذكية، ولم يكن لها من شرط سوى نسيان عقليتي الشرقية.. رزقنا بولدين، الأول دعوناه جاكوب والثاني ديفيد، طفلان رائعان لا يعرفان أن جدهما الذي تغيرت أحواله اليوم ويسكن في فيلا جميلة في الحصن وله رصيد كبير في البنك قضى حياته حراثاً يستأجر أرض الآخرين ويبذرها ويحصدها إن جادت المواسم وحسنت الفصول.. أملك قصراً فخماً على شاطئ بحيرة وحديقة واسعة جداً مزروعة بمختلف أشجار الفاكهة ويقوم عليها عدة عمال دائمين ..

تذاكر سفر مفتوحة لأي مكان نريد، لا اذكر أننا قضينا يوم عطلة في البيت إلا فيما ندر.. وإن كنت أفضل الطيران إلى لاس فيغاس من الاستجمام في هاواي أو جزر ماري أو هنولولو.. لاس فيغاس عالم لا تستطيع أن تتصوره حتى في خيالك.. هكذا أصبحت، نسيت كل ما يربطني بالوطن، حتى أهلي لا أذكرهم إلا في الشيكات المرسلة بين فترة وأخرى.. لا ترفع حاجبيك عجباً لقد أصبحت في الجانب الآخر الذي طالما حاربته ولعنته، ولكني لا أخفي عليك ما ينتابني في لحظات عابرة عندما يذكرني شئ بك، إحساس بالدونية رغم كل ما أملكه من ثروة وجاه ومكانة اجتماعية مرموقة في الهرم الأرستقراطي الاميركي الذي وفره لي زواجي من مشلين ..

أعرف أنك ستمزق رسالتي أو تحرقها، ولكن قبل أن تفعل ذلك استميحك عذراً فقد عرفت عن أحوالك المادية الصعبة ضع الرقم الذي تريد والبنك الذي ترغب بإرسال الشيك إليه، سأحوله فوراً باسمك ..

أحسدك على ثباتك وأتمنى لك أطيب الأمنيات في العام الجديد ..د. نسيم

مزق الرسالة بعصبية ثم أحرقها في صحن السجائر أمامه، زكم دخانها الكريه أنفه فشق النافذة قليلاً، إلا أنه عاد إلى إغلاقها بعد أن صفعه تيار الهواء الثلجي العاصف، لم يتحمل الجلوس في مكتبه، رفع سماعة الهاتف وتحدث لأميرة..

www.alkottob.com

_ حضري نفسك سأمر عليك الآن ونذهب إلى فندق المريديان

_ في هذا الجو العاصف ؟

_ العاصفة في الخارج لا تعنينا ما دمنا في الداخل، كل شئ مكيف والرقص يدفئنا .

ضحكت وتساءلت :

_ الرقص ..! لن نجد أحداً غيرنا ..

_ هذا أفضل .

_ استغرب رغبتك الآن مادامت حفلة النادي غداً ..

_ أحب أن تكوني معي الآن، قاعة الديسكو مفتوحة طوال الوقت ..

_ وجودنا وحدنا سيثير الاستغراب خاصة في هذا الجو العاصف.

_ ما همنا، بالعكس سنكون موضع ترحاب ..

_ لماذا لا تنتظر حتى الليل، ونسهر في نادي الشرق.

_ لا أستطيع الانتظار، سأشرح لكِ الأمر لاحقاً..

_ ما دمت ترغب بذلك فأنا أيضاً سأكون جاهزة بانتظارك

_ أحبك ..

_ أحبك ..

أعاد السماعة إلى مكانها بلطف، خفت عصبيته قليلاً ،

لبس معطفه وحبك أزراره، عبر على أمين الصندوق، تسلم راتبه وخرج..

لم يكونا وحيدين في صالة الديسكو، مجموعة من الشباب والشابات يرقصون.. لحش معطفه على الكرسي وتناول سترتها عن كتفيها وألقاها فوقه، وانخرطا في الرقص بينما زئير العاصفة يشتد عنفاً في الخارج ...

***

www.alkottob.com

رقم الإيداع في مكتبة الاسد الوطنية :

فـي مهـب الـريح: روايـة/ تيسـير دبابنـه– دمشـق : اتحـاد الكتـاب العـرب، 2000– 121ص؛ 25سم.

1– 8130.3 د ب ا ف 2– العنوان
3– دبابنه

ع:1069/ 2000/6 مكتبة الأسد

□□□

www.alkottob.com

هذا الكتاب

تبحث الرواية في موضوع هام، وهو النضال الصعب المرّ في حمّى التنازلات والانسحابات والانسلاخات والمبدئية، وراء المادة والخلاص الفردي، والتعلق بتبرير الهزائم المتكررة بدعوى الواقعية، والتطور الفكري والخروج من القواقع والتحجرات المدعاة.

وهي تمضي برشاقة وهدوء، بحواملها السياسية والاجتماعية واعتمادها على المكان المحتفى به بحضوره الدائم. في كنف رواية سلسلة مميزة معبرة موجبة ودالة.

www.alkottob.com

❐❐

www.alkottob.com